الوحدة الإسلامية والعامل النفسي

الوحدة الإسلامية والعامل النفسي

غسان نعمان ماهر السامرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 1435هـ / 2014م

الناشر:
هاتف:
بريد إلكتروني:

المحتوى

تقديم 11

الفصل الأول – التقريب بين المذاهب: الفكرة والمصطلح 17

تساؤل عن المصطلح 17

ماذا قال رواد التقريب 19

إلماعة إلى أسباب الفشل 21

لذلك: كان الجو ملبداً أمام الرواد 22

الخلاف الرئيس 23

الفصل الثاني – ما معنى الوحدة الإسلامية؟ 25

ماذا يقول الإسلام؟ 25

بالرغم من الخلاف 28

المنهج التوحيدي لأهل البيت (ع) 31

الفصل الثالث – الأبعاد المختلفة المجموعات والموضوع 33

ما ينتظره المتصدون 34

مثلاً: عبر المذاهب 35

مثال آخر: داخل المذهب الواحد 36

مثال ثالث: الحزب الإسلامي 37

مثال رابع: العشيرة والبعد المذهبي 38

أبعاد الموضوع 40
نظرة الطائفتين إلى التقريب والوحدة الإسلامية 43
الفصل الرابع – فشل جهود التقريب، وأسس النجاح 45
أسباب الفشل 48
الأساس هو الفشل على المستوى الشخصي 50
التكفير 51
النتيجة: الانعزالية والانغلاق 54
فشل المفكرين 57
فشل ونجاح 59
أسس النجاح 60
الفصل الخامس – البعد الفردي لماذا هو الأساس 65
العقل والشعور 67
العصبية 69
أحاديث ضد العصبية 71
العلم والموضوعية مع التقوى 73
النهج الموضوعي وعقل الجماعة 74
الدعوة إلى أهل البيت (ع): الموقف الشخصي 76

الفصل السادس – البعد الفردي تناول المسألة من الشخص المعني 79

ترسيخ ا لانعزال والانغلاق 79

العصبية والتكفير 82

ولكن كم من الأحاديث مكذوبة؟ 85

الطرفان وحديث المخالفين 87

حذار حذار من العصبية 88

لماذا كل هذه الكراهية؟! 89

التواصل منطلقاً مني إليك: الأسس

مهما كنت أنت . لا نتائج مسبقة . الطرفان داخل الإسلام .

لنكن رقيقين مع بعضنا! . نقاط الخلاف بعد نقاط اللقاء .

حسن الظن . فإذا ما استمعت إلي 90

عوداً على بدء: الهدف أكبر من غيره 98

الفصل السابع – البعد الفردي تناول المسألة من الآخر 99

التكفير وضرورة الوحدة 99

التكفير والعصبية 101

الحب والنصب 103

فهل أترك قول علماء مدرستي وأتبعك؟! 108

أسس النجاح، تذكير 110

التواصل منطلقاً منك إلي: الأسس

مهما كنت أنا . لا نتائج مسبقة . الطرفان داخل الإسلام .

لنكن رقيقين مع بعضنا! . نقاط الخلاف بعد نقاط اللقاء .

حسن الظن . فإذا ما استمعت إليك 111

لا تكن عبد غيرك 116

أو هي العصبية إذاً! 117

ويبقى الخيار لك 118

الفصل الثامن – كيفية الانطلاق نحو الأبعاد الأخرى 119

التكفير 119

حديث الثلاث وسبعين فرقة 120

الأحاديث الموضوعة 124

ما ينتظره المتصدون 124

أبعاد الموضوع: الطائفتان 125

أبعاد الموضوع: أروقة اللقاء والعمل

مساجد ومراكز إسلامية . مؤسسات تعليمية .

مؤسسات إعلامية . لقاءات اجتماعية، عمل خيري .

مؤسسات فكرية . عمل سياسي 127

التقريب أوسع من النخبة 137

الفصل التاسع – معايير النجاح 139

المفاهيم والأفكار لا الأشخاص 140

الانتباه إلى حالة التقوى 141

حالة التقوى تتعلق بالجانبين النفسي والعملي 141

الخروج من أسار الماضي بتناوله تناولاً عملياً كتاريخ 142

الخروج من أسار الماضي بعدم الخضوع لما وصل إليه 142

التحرر من العصبية 142

التحلي بروح الحوار 143

تقديم المشتركات على ما عداها 143

إحترام السلف الأول 143

منع العصبية المذهبية 144

الاجتهاد دليل الاعتراف بعدم صحة كل شيء 144

التعامل على هدي التعاليم الإسلامية 145

التعاون الصادق 145

الوقوف بحزم إزاء المعرقلين 145

التخطيط السليم 146

الاستفادة الحقيقية من طاقات الشباب 146

الاستفادة من التقنية الحديثة 146

الفصل العاشر – أمثلة من الواقع 147

أمثلة مما عشناه على صعيد الدول 147

ولكنهم بعيدون عن الدين؟ 150

أمثلة معاشة على صعيد العلماء 151

الخلاف الرئيس 151

شكوك وظنون واتهامات 152

فهل ولى زمن الشيخ؟ 152

ما نعيشه في هذه اللحظة بالذات؟ 158

المنهج الأعلى 158

أما واقع الناس... 160

العجب مما نشهده اليوم 161

مساحات مضيئة 165

خاتمة – المؤمنون إخوة 169

تقديم

يعتبر موضوع الوحدة الإسلامية واحداً من أكثر المواضيع تداولاً وتنويهاً عند المسلمين، من العامة والخاصة، المتعلمين وغير المتعلمين، الباحثين في الشأن الإسلامي والعلماء وطلبة العلوم الدينية، بل وحتى السياسيين الذين لا يصدق الناس معظمهم، وذلك لأن مسألة "الوحدة الإسلامية" مسألة مركزية كونها تتعلق بمدى تراحم المسلمين ومحبتهم لبعضهم وتعاونهم وشكل تعاملهم فيما بينهم ومدى تماسكهم وتعاونهم قبال الآخرين، سواء كانوا أعداءاً أم أمماً أخرى. ولا شك في أن ما تمر به الأمة الإسلامية اليوم، وقبل اليوم منذ عقود، بل قرون، مضت، من تفكك وتخلف وصراعات وخضوع للأجانب الطامعين والمتآمرين الذين لا تأخذهم بالمسلمين رحمة ولا يتعاملون معهم بإنصاف، ما يعرض الأمة لخسائر هائلة بصورة مستمرة، خصوصاً في العقود القليلة الماضية التي شهدت خسائر بالأرواح والممتلكات والأموال ما قل نظيره في تاريخها أو في الأمم الأخرى، يجعل من المتوقع من المسلمين، كأي أمة تتعرض إلى العدوان

بما هي أمة واحدة، الانتباه أولاً ثم التفكير بما يمكن عمله إزاء كل هذا الضغط والعدوان والتآمر.

هذا، علاوة على ما جرى على الأمة في جزء عزيز أثير له قداسة دينية كبرى منذ أيام الإسلام الأولى على العهد النبوي، وهو ضياع فلسطين، بل تضييعها نتيجة ما ذكرت من التفكك والتخلف والصراعات والخضوع للأجانب، الذي كان له الأثر الأكبر في كل ما شهدناه ونشهده من خسائر لا حد لها، هذه الحالة – أي تضييع فلسطين – التي لم تحصل في مكان آخر فيما نعلم، لأن ما جرى على السكان الأصليين في الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا وبعض الجزر الصغيرة إنما كان إخضاعاً للسكان الأصليين للقوة العسكرية الغربية المتفوقة ما مهد الأرض لقدوم المهاجرين البيض بكثرة وباستمرار، ثم إعمالهم القتل والتنكيل بالسكان الأصليين، حتى تفوقوا عليهم بشكل كاسح، ولكن لم يتم طرد السكان الأصليين. أما في فلسطين، فقد كان طرد السكان الأصليين هو السمة البارزة، بل المركزية لقيام دولة عبرية خالصة. والأعجب في الأمر أن هذا حصل للفلسطينيين وهم يعيشون في قلب العالم العربي الذي هو في قلب العالم الإسلامي، وعلى مرمى حجر من مركز الإسلام في مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن حواضن العلم الديني في العراق وسورية ومصر!

لذا، كانت هذه القضية المأساة عاملاً إيجابياً في إبقاء جذوة الوحدة الإسلامية باقية لا يمكن إطفاؤها – فهي من جهة توجب على المسلمين جميعاً عمل شيء لاسترجاع حقوق إخوانهم في فلسطين، ومن جهة اخرى تجعلهم، أو العاملين منهم على الأقل، يتنبهون إلى مؤامرات الأعداء التي تشكل عامل الضغط المستمر لإبقاء المسلمين على حالهم الضعيف هذا، ما يدفعهم إلى التفكير في العمل المناسب للتقدم المطلوب من أجل أخذ زمام المبادرة التي ضاعت منهم. هذا كله يجعلهم يعودون المرة تلو الأخرى إلى موضوع الوحدة الإسلامية على أساس التنبيه القرآني الواضح ((واعتصموا بحبل اللهّ جميعاً ولا تفرقوا)) وذلك لأن الفرقة تؤدي إلى الضعف ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم))، ثم يتفرع عن ذلك الانتباه إلى مثيلاتها في القرآن والسنة من حث على الالتزام بالمبدأ الإسلامي ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة)).

إلا أن الفشل في القضايا الكبرى يؤدي إلى البحث عن قضايا صغيرة عسى أن نحقق النجاح فيها من أجل أن نشعر بالرضا عن أنفسنا! أما ترى أن بعض التجار المسلمين الذين يسرقون الناس كل يوم يذهبون إلى الحج كل عام؟! أما ترى أن كثيراً من الناس الذين ينهشون في أعراض الآخرين كل يوم في مسلسل من الغيبة التي لا تنتهي لا يتوقفون عن ختم القرآن ختمة بعد أخرى؟! أما ترى – وهذه من أشد مهازل المسلمين إيلاماً – أن

حكام المسلمين الذين يقتلون الناس- كما يشربون الماء - يقومون ببناء مساجد كبيرة مزينة تكلف الملايين؟!

لهذا، تجد أنه لا يمر عام إلا وتتجدد مطالبة عوام المسلمين بتوحيد بداية شهر رمضان وبداية عيد الفطر، ويتأسفون على حال الأمة التي لا تستطيع تحقيق ذلك – مع أن هذا من المستحيل، لأنه حتى مع اعتماد الحسابات الفلكية فإن وقوع الدول الإسلامية في أكثر من ليل أو نهار يجعل من بدء شهر رمضان أو نهايته امراً غير ممكن.

على أنه من الواجب القول أن الكثير من المسلمين متنبهون إلى ضرورة العمل من أجل الأهداف الكبرى، أو على الأقل الأهداف المقدمة لتحقيق الأهداف الكبرى، كقضية السوق الإسلامية المشتركة وتخفيف الحواجز بين الدول وزيادة التعاون الثقافي والعلمي والسياحي والفني والرياضي – وليس المخابراتي فقط! كما أن بعضهم يرفع الصوت من أجل ذلك كله، وبعضهم يقترح أن يتم استثمار موسم الحج لتفعيل التلاحم والتعاون والانطلاق إلى الآفاق الواسعة، فيثنّي على ذلك الآخرون من أولي الأمر ولكنهم لا يفعلون شيئاً، اللهم إلا ما يزيد الأمر سوءاً.

إن تلك الأصوات المخلصة لا تلقى صدى، اللهم إلا في بعض المؤتمرات والاجتماعات، التي لا يكاد تأثيرها يتجاوز القاعات والفنادق

والمطاعم التي تشهدها، أو في بعض المطبوعات التي لا ينتقل أثرها إلى أبعد من أذن السامع، فإذا ما مس عقله قليلاً فإنه يجد نفسه مثقلة بأنواع العقد والتوجيهات التي ليس بينها وبين الإسلام، والوحدة الإسلامية بالخصوص، أكثر مما بين عتاة كفار قريش الأولين والإسلام!

وهذا بالذات هو موضوع هذا الكتاب*، الذي تتدرج فصوله تدرجاً منطقياً في تناول الموضوع:

الإشارة إلى مصطلحات "الوحدة الإسلامية" و "التقريب بين المذاهب الإسلامية" والجهود في هذا السبيل، وذلك من أجل تحديد المطلوب بدقة، لا باستخدام المصطلحات دون تمييز؛

وتسليط الضوء على ما أعتقده أسباباً لفشل تلك الجهود، مع طرح أسس النجاح التي ينبغي أن تتصدى لأسباب الفشل؛

ثم التنبيه إلى مركزية البعد الفردي في فشل جهود التقريب، وفي جانبه النفسي بشكل أساس بلحاظ استمرار الفشل رغم وضوح الحقائق من خلال البحث العلمي؛

وبعدها طرح ما أراه ضرورياً لكيفية تناول المواضيع الخلافية، أولاً من جانب الداعية، أو الشخص المعني كما سميته لأني أود أن يكون المنهاج

الصحيح معتمداً لدى الجميع حتى من لا يعتبرون أنفسهم دعاة – وذلك بشكل دقيق يتحدث إلى النفس الأخرى ودون عموميات لا تأتي بثمار؛

ثم من جانب المتلقي، أو الآخر الذي يتفاعل مع الشخص المعني – بنفس الطريقة الدقيقة في الحديث مع الشخص المعني؛

ليتم الانتقال بعدها إلى الأبعاد الأخرى؛

مع إعطاء معايير النجاح بناء على ذلك؛

وانتهاءاً ببعض الأمثلة من الماضي والحاضر.

* فصول الكتاب منشورة على موقعي على الإنترنت:

www.return2origins.com

كمقالات – بتوسع قليل - قسم "الوحدة الإسلامية"/ مقالات، وكتسجيلات صوت وصورة – لملخصاتها – قسم "الوحدة الإسلامية"/ مرئيات:

http://www.return2origins.com/unity.aspx

http://www.return2origins.com/unityvideo.aspx

الفصل الأول

التقريب بين المذاهب: الفكرة والمصطلح

تساؤل عن المصطلح

يرتبط مصطلحا "الوحدة الإسلامية" و "التقريب" بعضهما بالبعض الآخر على الدوام لأن الذين يدعون إلى الأول يدعون إلى الثاني، أو لأن الثاني مقدمة للأول على أساس أن الوحدة الإسلامية- كي تتحقق- ينبغي تقريب وجهات النظر وردم الفجوة أولاً من خلال التقريب.ولكن كم هو دقيق مدلول كل واحد من المصطلحين؟

إن رفع شعار كبير جداً كشعار "الوحدة الإسلامية" ينبغي أن لا يكون دون تحديد الملامح لأن هذا من شأنه أن يبقي الأمر في دائرة الآمال والطموحات فقط – وهو ليس شيئاً سلبياً. إلا أن تحديد ملامح هذه الوحدة أمر ضروري من أجل النظر في الإمكانيات على المديات القصيرة والمتوسطة والبعيدة، ومن ثم الغوص في التفاصيل المطلوبة لكل مرحلة.

عندما تقول "الوحدة الإسلامية" فإن السامع يفهم أن يكون المسلمون كياناً واحداً، إما على الأساس المذهبي أو الأساس السياسي، وذلك

لأن توحيد إطار التلقي الديني في العقيدة والشريعة والمنظومة الأخلاقية يعني حصول "وحدة إسلامية" دينية، وأن توحيد البلدان الإسلامية في كيان سياسي واحد، أي دولة واحدة، يعني وحدة القرار والموقف علاوة على القوة الاقتصادية والعلمية والفكرية المتحققة من خلال مؤسسات دولة واحدة منسجمة. وبما أن الأول، أي الأساس المذهبي، يتعلق بالأساس السياسي لأن أصل الخلاف كان سياسياً، وبما أن الثاني، أي الأساس السياسي، يتعلق بالأول لأن أصل الخلاف نتج عنه نظرتان مختلفتان إلى الحاكم والحكم وكيفية التعامل معهما، ناهيك عن صراعات المصالح والسلطة (التي ستجعل من المشكلة النظرية أمراً بسيطاً!)، فإن تحقيق الوحدة الإسلامية إذا كان ممكناً نظرياً فإنه يصبح متعسراً، إن لم نقل مستحيلاً، عملياً.

إذاً، لو بقينا في الجانب النظري ثم قبلنا بإمكانية قطع الطريق خطوة خطوة، فإن مصطلح "التقريب"يصبح هو اللاعب الأساسي في الموضوع.

فما هو "التقريب"؟

إن المطروح هو "التقريب بين المذاهب الإسلامية"، ولي على المصطلح نفسه تساؤل: هل أن المقصود هو التقريب بين المذاهب بما هي مذاهب، بمعنى التقريب العقدي والفقهي، أم هو التقريب بين أتباع المذاهب، أي بين المسلمين من المذاهب المختلفة؟

فشتان ما بين الاثنين: التقريب العقدي والفقهي يعني مواجهة المسألة على مستوى العلماء والباحثين والمفكرين ثم طرح ما يتوصلون إليه أمام الجماهير كي تأخذ به، وأما التقريب بين أتباع المذاهب فهذا يعني مواجهة الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدعوية التي يعيشها المسلم العادي، وإن كانت المواجهة من قبل العلماء والباحثين والمفكرين والدعاة أيضاً.

ماذا قال رواد التقريب

إن رواد التقريب كانوا مقتنعين بأن التوحيد المذهبي غير ممكن – قال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمه الله: "ينبغي أن يكون من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها، أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء، الغرض هو تبديل التباعد والتباغض إلى الإخاء والتقارب".

بمعنى، أن الهدف هو جعل العلماء من المذاهب المختلفة ينظرون إلى بعضهم نظرة أخوية إيجابية، ونشر هذه الروح في الأتباع الذين يأخذون بنهجهم وفتاواهم، أي جماهير المسلمين.

على أن قوله "أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء، الغرض هو تبديل التباعد والتباغض إلى

الإخاء والتقارب" يحدد سقفاً أقل مما يمكن التوصل إليه، بل مما ينبغي العمل من أجله وما يمكن التوصل إليه من تقارب في المجالات المختلفة التي تزيد الأمة قوة على طريق التقدم. ولكن ربما استبطن ذلك الهدف هذا التقارب على أساس أن تبديل النظرة السلبية إلى نظرة إيجابية والتحلي بروح الإخاء من شأنه أن يؤدي تلقائياً إلى نشوء حالة من الرغبة في التعاون والعمل المشترك، ما يؤدي إلى التقارب.

هذا وقد انصبت جهود جماعة التقريب في وقتها، وبعض العلماء ذوي النهج التوحيدي، على محاولة التقريب في الأمور الدينية ذاتها، عن طريق محاولة طباعة تفسير للقرآن متفق عليه، أو الإعلان أن جميع المذاهب الإسلامية محترمة وبذا فعلى جميع المسلمين النظر إلى المسلمين أتباع المذاهب الأخرى النظرة الإسلامية الجامعة لهم كأمة واحدة. هذه الجهود بذاتها مفيدة إذا استطاعت جعل المتصدين والمهتمين يخففون من نظرتهم السلبية – وحتى العدائية – من خلال التعرف ليس على ما عند الآخرين فحسب، بل أيضاً على ما تم تضخيمه عندهم مما لا يشكل تلك الدرجة من الأهمية.

أخيراً، فإن عملية التقريب، بمعنى البحث بين العلماء والمفكرين، هي العمل المنهج العقلاني الذي لا بد منه إذا كانت مسألة الوحدة – بغض النظر عن تفاصيل معانيها – هي الهدف.

هذا كهدف نهائي، أما الوحدة على أساس المصالح فلا تنتظر التقريب، أي من الممكن تحقيق الكثير في مجالات التعاون القائمة على أساس مصالح المسلمين المشتركة حتى وإن كان الوضع المذهبي على ما هو عليه.

إلماعة إلى أسباب الفشل

في الفصل الرابع سأتناول أسباب الفشل، هنا أشير إلى بعض الأطر العامة التي تواجه العمل التقريبي والوحدوي.

من ذلك يتعلق من أن مجرد الجهد هو حالة إيجابية، وهو ما حققته محاولات التقريب – وكلها فشلت في عبور الحواجز بنوعيها: العقلي والنفسي.

ومن ذلك ما يتعلق بنوعية التركيبة الذهنية-النفسية عندنا، حيث تتعلق بشدة بالبطل والقوي والخارق، وهذا يجعل الناس تقاتل من أجل الدفاع عن رمز من رموزها ولكنها لا تجد في نفسها الحماسة للدفاع عن المفاهيم والقيم الكبرى. فينشأ صراع شديد ربما أدى إلى هدر سمعة الإسلام في إطار الدفاع عن رواية أو تفسير أو قول واضح البطلان ولكنه يشكل أحد أحجار الحواجز المذهبية التي لا يمكن التنازل عنها.

ثم هناك الانعزال، وهو نتيجة طبيعية لوجود الحواجز العالية، لأن المرء لا يحب أن يعيش في جو مكهرب ملؤه الكراهية والحقد وسوء الظن،

وما ينتج عنه من تفسيق وتكفير، وحتى إباحة الدم الذي يجعله ينجو بجلده وينكفئ مع جماعته في مساجدهم ونواديهم وحتى مناطق سكناهم. هذا مع أن الناس الذين عاشوا أيام بداية الخلافات لم ينكفئوا ولم ينعزلوا.

ففي رواية للطوسي في تهذيب الأحكام ج3 باب 13 رواية 129، سأل الإمام جعفر الصادق (ع) رجلاً من شيعته اسمه إسحق بن عمار: ((يا إسحق أتصلي معهم في المسجد؟)) أجاب: نعم، قال: ((صل معهم، فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله)).

فهذا الإمام نفسه يعلن بأن صلاة الشيعي مع أهل السنة، أي عدم الانعزال عنهم، تصل بالشيعي إلى أعلى الدرجات عند الله تعالى.

وفي رواية (نفس المصدر رواية 102) أن الإمام (ع) كان يأمر بعدم الانعزال، عندما قال له رجل: إن لنا إماماً مخالفاً وهو يبغض أصحابنا كلهم، فقال (ع): ((ما عليك من قوله؛ والله لئن كنت صادقاً فأنت أحق بالمسجد منه، فكن أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس وقل خيراً)).

لذلك: كان الجو ملبداً أمام الرواد

إن هذه الأوضاع الصعبة، هذه الوديان العميقة دون أي جسور، هي التي واجهها رواد التقريب، كما يذكر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى

كيف أن في "بداية الدعوة كان الجو مليئاً بالطعون والتهم والافتراءات وسوء الظن من قبل المتعصبين والمتزمتين الذين قالوا أنها محاولة لإدماج المذاهب بعضها إلى بعض"، وكيف "حارب الفكرة ضيقو الأفق وأصحاب الأغراض السيئة والنفوس المريضة والنزعات الخاصة".

إن هذا التخويف من إدماج المذاهب لا يزال فاعلاً إلى اليوم، بل قد اشتد حتى من قبل بعض العلماء الدعاة الذين كانوا ولا يزالون يعدون من كبار أئمة التقريب! إنهم يخوفون أتباعهم من حصول تبشير من المذهب المقابل في عملية التقريب، فينسفون أي محاولة لبناء جسور المحبة والتعاون.

الخلاف الرئيس

هذا الموقف من هؤلاء مرده لأن الخلاف الأساسي هو حول الإمامة والخلافة والذي جعل الأمة تنفصل إلى مذاهب، ليس الشيعة الإمامية الإثنا عشرية والسنة فحسب، بل حتى الشيعة الزيدية والإباضية إنما نشأتا من جذر سياسي واضح. ويتمركز الخلاف بين الباحثين في قضايا التقريب حول أمور:

الأول – توثيق المصادر الروائية لهذا الفريق أو ذاك؛

الثاني – توثيق أئمة أهل البيت (ع) دون الصحابة يبدو وكأنه موقف معاد للإسلام، أو أن توثيق بعض الصحابة يعني عداء لأهل البيت (ع)؛

الثالث – تفسير وتأويل الأحداث التاريخية تفسيرات وتأويلات مختلفة يصل بعضها إلى أقصى حد من التناقض، فحادثة واحدة يعدها البعض دليلاً على إهمال أوامر إلهية صريحة بينما يعدها الفريق المقابل أنها دليل على مرونة الدين أو عبقرية المتأول (مثلاً قبول جعل جزية بني تغلب النصارى زكاة عدّها أهل السنة دليلاً على مرونة الإسلام لأن فعل الصحابي، الخليفة، الذي قام بذلك حجة شرعية عندهم، في حين عدّها الشيعة مخالفة لصريح القرآن الكريم).

هذه الأمور الثلاثة كلها تشكو مما أشرنا إليه من الذهنية والنفسية المحملة بالعقد وسوء الظن والسقوط أمام المصالح. فربما وجد الباحث عدم وثاقة راوٍ ما حسب ما قرره أهل مذهبه أمراً غير صحيح ولكنه يحجم عن الإعلان عن ذلك؛ وربما تيقن الباحث من أن الالتزام بروايات أهل البيت (ع) ليس موقفاً سلبياً ضد الصحابة بل هو عمل بما توصل إليه الآخرون من النص الديني؛ وربما توصل الباحث إلى أن حادثة تاريخية ليست كما توصف، أو أنها لم تحصل أصلاً، ولكنه يحجم عن التصريح بذلك ... ويبقى الجميع على ما هم عليه، الجاهل على جهله، والذي علم وعرف يبقى مصراً على الجهل أو التجاهل.

الفصل الثاني

ما معنى الوحدة الإسلامية؟

ماذا يقول الإسلام؟

إن مفهوم الأمة الواحدة في الإسلام من الوضوح بحيث نستطيع القول دون مجازفة أنه أحد المبادئ الأساسية للأمة. قال تعالى: ((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)) الأنبياء: 92، وقال: ((وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)) المؤمنون: 52.

فماذا تعني الأمة الواحدة؟ هل هي الأرض أم الإنسان الذي يحيا فوقها؟ هل هي العقيدة والشريعة أم الذي يطبقها ويسير على نهجها في طريق مرضاة الله: عمارة الأرض في الدنيا والفوز في الآخرة؟ هل هي الرعاة الحكام أم الرعية المواطنون؟

ذلك أن هناك إهمالاً كبيراً للجانب الإنساني إلى درجة قبول إخضاع المواطنين إلى أقصى درجات الذل والكبت والفقر والتجهيل من أجل إبقاء الحاكم "ولي الأمر" لأن الخروج عليه خروج على الدين! فترى أن الأمة تنهض للدفاع عن موقف خطأ ظالم دون أن يستفيد من نهضتها المؤقتة غير

الحاكم ولكنها تتقاعس عن مجرد الدعاء للمظلومين الذين يجدون حياتهم وآمالهم ومستقبلهم تقضي تحت قدميه...

والسبب وجود تلك الفكرة التي تنظر إلى الأمجاد على الأرض لا في الإنسان... أما الإسلام فله رأي آخر.

قال رسول الله (ص): ((ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل)) صحيح البخاري كتاب الحج باب حرم المدينة حديث 1870، وصحيح مسلم كتاب الحج حديث 1370. والإخفار هو نقض العهد.

وحديث الإمام الصادق (ع): ((المسلم أخو المسلم، وهو عينه ومرآته ودليله، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه)) بحار الأنوار ج71 ص337.

أما عن الحكم بإسلام الإنسان فليس إلا الصلاة واستقبال القبلة وأكل ذبائح المسلمين. قال (ص): ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)) صحيح البخاري كتاب الصلاة أبواب استقبال القبلة.

وأمر النبي (ص) علياً (ع) عندما أعطاه الراية يوم خيبر أن يقاتلهم حتى الإقرار بالشهادتين لا أكثر: ((قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم)) صحيح مسلم فضائل علي (ع). أي أن شرط إيقاف القتال هو الإعلان بالتوحيد والإيمان بنبوة محمد (ص) (على الرغم من أن ذلك الإعلان ربما يكون في الخارج فقط ، وهذا يعني حرمة الدماء حتى وإن كان الإيمان غير مؤكد، بل على الأكثر غير موجود أصلاً).

والمسلمون يعرفون الرواية عن أسامة بن زيد، التي رواها البخاري ومسلم، عندما قتل رجلاً بعد أن قال لا إله إلا الله قبل طعنه بالرمح وأن النبي (ص) لم يرض بذلك حتى بعد أن قال أسامة أن الرجل كان متعوذاً.

وفي الصحيحين أن المقداد بن عمرو سأل النبي (ص) عن الحكم في حالة إذا لقي رجلاً من الكفار فلاذ بشجرة بعد أن ضرب المسلم وقطع يده هل يقتله؟ قال (ص): ((لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال)). علق السيد شرف الدين الموسوي رحمه الله أنه "ليس في كلام العرب ولا غيرهم عبارة هي أدل على احترام الإسلام وأهله من هذا الحديث الشريف"، وقال بأنه "قضى أن المقداد على سوابقه وحسن بلائه لو قتل ذلك الرجل كان بمنزلة الكافرين المحاربين لله

ولرسوله، وكان المقتول بمنزلة واحد من أعاظم السابقين وأكابر البدريين الأحديين، وهذه أقصى غاية يؤمها المبالغ في احترام أهل التوحيد، فليتق الله كل مجازف عنيد".

وبعد أن طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب سأل ابن عباس عن قاتله، فلما علم أنه لم يكن من المسلمين حمد الله على ذلك. وعلق السيد شرف الدين الموسوي بأن قول عمر "الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على رجل يدّعي الإسلام" أنه كان يخشى أن قاتله لو كان مسلماً ممكن أن يغفر له لإسلامه، وفي هذا من الدلالة على حسن عواقب المسلمين ما لا تسعه عبارة".

بالرغم من الخلاف

لذلك كانوا في الصدر الأول يختلفون في تعاطيهم مع الخلافات ومع المخالفين عن تعاطينا بشكل يكاد يكون تاماً. فمثلاً كان الإمام علي (ع) يتعايش مع الذين أنكروا حقه في الخلافة (فقضوا بها حتى دون استشارته)، بل يقف معهم موقف الناصح الذي وجد خلافه معهم – على شدة أهميته لأنه يرتبط بالدين – غير مانع من القيام بما عليه.

ولكن المؤسف هو أن ترسخ الخلاف، والبعد عن منهج أئمة الهدى (ع)، واشتداد الضغط والتنكيل بالمسلمين المعارضين، أدى إلى تحول الخلاف

من اختلاف فكري إلى خلاف مذهبي بين مذاهب صار لكل منها بناؤها المتين الذي لا يقبل المرونة، وصولاً إلى الخلاف الطائفي حيث صارت الطائفة، في مراسيمها وشعائرها بل وحتى ألفاظها وطريقة ملبس أفرادها، هي الحصن الذي يتم الدفاع عنه ضد هجمات الآخرين، في إهمال تام من قبل الجميع إلى الأرضية المشتركة من كتاب عزيز تنزيل من رب العالمين وحديث شريف من سيد المرسلين (ص) التي صارت لا تقوى على الانتصار على غيرها.

وقد روى المؤرخون كيف كان التعامل العلمي بين الإمام الصادق (ع) ورؤساء المذاهب السنية المعاصرين له أبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس رحمهما الله تعالى. ولعل هذا الشكل من التعامل هو الذي جعل طلاب العلم من أهل السنة يجلسون في مدرسة الإمام الصادق (ع) في مسجد النبي (ص) لتلقي العلم منه (ع).

وبعد عصر الأئمة (ع) وعصر مؤسسي المذاهب السنية الأربعة، نجد ذات التعامل بين العلماء من المدرستين. فقد روي أن الشيخ المفيد محمد بن النعمان التلعكبري كان يجلس في درس الشيخ الرمّاني المعتزلي وأن الرماني هو الذي سماه بالشيخ المفيد، والذي صار مرجعاً للشيعة.

والرضي رحمه الله – جامع كتاب "نهج البلاغة" كان يروي في بعض كتبه عن علماء أهل السنة حتى لعل القارئ لا يستطيع تبين مذهبه من تلك الكتب.

تبعهم على ذات النهج تلميذ المرتضى، الشيخ الطوسي، الذي أسس مرجعية النجف الأشرف عندما انتقل إليها من بغداد، فكان صاحب كرسي علم الكلام رسمياً من قبل الخليفة العباسي القائم بأمر الله، ما يعني أن أكثر من كان يحضر درسه من أهل السنة.

ولقد استمر علماء الشيعة بالخصوص في تأليف كتب تضم العلم من الفريقين، كما فعل الشيخ الطبرسي في جمعه تفسير القرآن "مجمع البيان" الذي ألفه أولاً مع ما وجده نافعاً من تفسير "الكشاف" للزمخشري السني سماه "الكافي الشافي". هذا ناهيك عن تفسيره الآخر "جوامع الجامع" الذي قامت جماعة التقريب الأولى بطباعته ونشره، وكتب مقدمته أحد أهم أعضائها المرحوم الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الشريف وقتها.

وكذا في العصر الوسيط، حيث ضمن العلامة الحلي الأحكام الشرعية استناداً إلى المذهب الإثني عشري والمذاهب السنية، وذلك في كتابيه "المنتهى" و "تذكرة الفقهاء".

وإلى قبل ثلاثمائة عام أو تزيد قليلاً، كانت بعض الحوزات الشيعية، تدرس كتاب التفسير "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للقاضي ناصر الدين البيضاوي، والذي كان كتاباً معتمداً في الحوزات السنية.

وكذا وجدنا من المتأخرين من يفعل ذلك، حيث جمع المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية ما حواه كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" للمرحوم الشيخ الأزهري محمد أبي زهرة مع الأحكام الشرعية في المذهب الجعفري الإثني عشري ليخرجها في كتاب سماه "الفقه على المذاهب الخمسة"، ما يمكن اعتباره ليس عملاً علمياً فحسب، بل خطوة تقريبية تستهدف إثبات تداخل المذاهب فيما بينها. كما فعل العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في موسوعته التفسيرية "الميزان في تفسير القرآن"، حيث كان يأتي بالروايات السنية مع الروايات الشيعية في البحوث الروائية.

المنهج التوحيدي لأهل البيت (ع)

لهذا وجدنا أهل البيت (ع) يتخذون المنهج التوحيدي سيرة ملازمة لهم جميعاً. من ذلك:

1- مساندة علي (ع) لأبي بكر في خلافة الأخير رغم اعتقاده الذي ثبته بعد ذلك ((أرى تراثي نهباً))

2- يوم رد علي (ع) أبا سفيان الذي جاء يحرضه وعمه العباس على التمرد على أبي بكر الخليفة

3- خلافة عمر وكيف أن علياً (ع) سانده، فوقف معه إلى درجة نصحه بعدم التوجه بنفسه لقتال الفرس خشية عليه من أن يقتل

4- يوم الشورى بعد بيعة عثمان وقوله المعروف ((لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة))،

5- صلح الإمام الحسن (ع) ومهادنته لمعاوية حقناً للدماء وتمكيناً لأجواء الهدوء من أن تسود من أجل نشر القرآن والسنة

6- توجيهات الأئمة (ع) لشيعتهم في الاندكاك في المجتمع المسلم بأكمله، كما في قول الصادق (ع): ((كونوا لمن انقطعتم إليه زيناً ولا تكونوا عليه شيناً، صلوا في عشائرهم وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير فانتم أولى به منهم)) الكافي ج2 ص219، حديث 11، وبحار الأنوار ج78 باب 29 رواية 1.

الفصل الثالث

الأبعاد المختلفة – المجموعات
والأبعاد المختلفة - الموضوع

الأمة الإسلامية، كأي أمة، لها مكونات مختلفة: مناطق جغرافية، شعوب، عشائر، حضر وريف وبدو، مجتمعات، معاهد، بلدان، حكومات، أحزاب، جماعات، مذاهب، أفراد. جميع هذه المكونات تتأثر بشكل أو بآخر بموضوع الوحدة الإسلامية لأنها تتأثر بالتفاعل المستمر فيما بينها. فمهما كان الانعزال شديداً لمكون من هذه المكونات فلا بد وأن يتأثر بحالة الأمة، في تباعدها وتقاربها، تماسكها وتمزقها، قوتها وضعفها، تقدمها وتخلفها.

إن هذه الحالة التي نجدها اليوم في العالم الإسلامي بحيث صار هناك مناطق يغلب عليها أتباع هذا المذهب ومناطق يغلب عليها أتباع ذلك المذهب، بل مساجد منفصلة لهؤلاء وهؤلاء حتى في نفس المنطقة، لم تكن موجودة في الصدر الأول من الإسلام وحتى قرن أو أكثر، بل كانوا يتباحثون ويتناقشون حول مسائل الخلاف في نفس المسجد، الأمر الذي لم يعد موجوداً حتى في المساجد التي تشهد تواجداً لأتباع مذاهب مختلفة في آن واحد.

مما عندنا من نصوص تاريخية، نستطيع الجزم أن علماء الصدر الأول كانوا يتمتعون بعقلية كبيرة في النظر إلى الخلاف بحيث لم يكن يرونه كله نابعاً من العناد مع الحق، بل يغلبون حسن الظن في الآخر أنه لم يستطع الاهتداء إلى الصواب في الحكم الشرعي، اللهم إلا أن يثبت له أن ذلك الآخر يعيش حالة من الانحراف التي لا علاج معها. وصلتنا نقاشات ومحاورات علمية في المسجد النبوي ومسجد الكوفة وغيرهما تدل على ذلك الجو الذي لم يتميز بالانعزال والتباعد، البدني على الأقل.

بالطبع عندما يكون هناك اتجاه تفسيقي تكفيري فإن المسلم الذي يتعرض للهجوم يجد الجو معادياً، ربما إلى درجة الخوف على حياته، وهذا أدى إلى بداية روحية الانعزال والتباعد إلى أن وصلت إلى أن يمتنع المسلم عن البوح بفكره ومعتقداته. ولا غرابة في ذلك إذا كانت الفتاوى تصدر كل حين بتكفير وتحليل دماء مسلمة محترمة.

ما ينتظره المتصدون

وتشتد الحالة في المساجد التي لا يمكن أن تكون إلا مساجد عالمية، ولا سيما المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة، بحيث لا تمضي أسابيع إلا ويخصص الخطيب جزءاً مهماً من خطبته للتهجم على الشيعة، أحياناً أثناء مواسم الحج والعمرة في شهر رجب وشهر رمضان

حيث تكون نسبة الشيعة كبيرة بين المصلين خلف هذا الخطيب الذي لم تنفعه تلاوة القرآن ولا الصلاة في المسجد الحرام في شفاء ما تعانيه نفسه.

فهذه الحالة ستواجه المتصدين للعمل التقريبي وكل من يسعى إلى بناء الجسور وتبديل الكراهية إلى محبة. هذه الحالة واجهت رواد التقريب في القرن العشرين، كما وصفها الشيخ محمود شلتوت (شيخ الأزهر الأسبق) بأن الجو كان "مليئاً بالطعون والتهم والافتراءات وسوء الظن من قبل المتعصبين والمتزمتين الذين قالوا أنها محاولة لإدماج المذاهب بعضها إلى بعض". وذلك لأن أول ما يتسلح به الخصم عند غياب التقوى هو كيل التهم والافتراء، في إطار من سوء الظن حتى حول موضوع واضح النبل...

كما ذكر كيف"حارب الفكرة ضيقو الأفق وأصحاب الأغراض السيئة والنفوس المريضة والنزعات الخاصة". وهو ما يحصل عند اصطدام أي فكرة جديدة بضيق الأفق، وأي جهد نبيل بالهدف السيء، وأي مشروع أساسه المحبة بالنفس المريضة، وأي عمل من أجل الصالح العام بالنزعة الخاصة.

مثلاً: عبر المذاهب

بعيداً عن الحكومات والجوانب القومية والعشائرية والمناطقية فإن جهود التقريب عبر المذاهب تمثل أحد الجوانب المهمة في عملية التقريب

بحيث يمكن القول أنها إذا فشلت فإن الصعوبات في العمل في الجوانب الأخرى ستشتد وربما تؤدي إلى الفشل أيضاً.

ولا أريد هنا تكرار ما قلته آنفاً من أن مشاكل الجهل والتحجر والتعصب والانغلاق إضافة إلى العقد النفسية والجوانب المصلحية تشكل جميعها موارد للفشل على مستوى حوار المذاهب، أي المستوى العلمائي. ذلك أن العلماء ليسوا بمنأى عن جميع نقاط الضعف هذه، بل إننا نجد أن بعضهم – وربما أكثرهم – يعيش هذا الضعف بشكل أشد من غيرهم.

مثال آخر: داخل المذهب الواحد

إن مشاكل الجهل والتحجر والتعصب والانغلاق والعقد النفسية والجوانب المصلحية هي ذاتها تفعل فعلها في هذا الإطار أيضاً. بل ربما وجدناها أكثر شدة منها في جهود الحوار والتقريب عبر المذاهب لأن التنافس أكثر شدة من جانب، ولأن التخويف من الجديد أو أي شيء يتحدى السائد أكثر سهولة.

وليس هذا الجانب ثانوياً في موضوع التقريب والوحدة، بل هو في غاية الأهمية، لأن المتصدين للتقريب بين المذاهب يتعرضون – أول ما يتعرضون – للتهجم من داخل مذاهبهم هم، كما أشار الشيخ شلتوت وغيره.

مثال ثالث: الحزب الإسلامي

يجمع الحزبيون الإسلاميون، بين صفتين: الإسلام والفكر، بمعنى الخضوع للنص الديني والحكم الشرعي وبنفس الوقت التحرر من بعض أثقال المؤسسة الدينية أو الإطار الديني التقليدي. لذا، تجد أن هؤلاء يعيشون أجواء الحوار والتفكر والانفتاح على الأفكار الجديدة.

إلا أن السؤال يبقى: لماذا يا ترى فشلت الأحزاب الإسلامية في ضم أعضاء كثيرين من الطوائف الأخرى التي لا ينتمي إليها قادة الحزب أو مؤسسوه؟ بل لماذا لم يتأسس حزب منذ اليوم الأول بطابع إسلامي عام يضم منتسبين من أتباع المذاهب الاسلامية الأخرى؟

إذا كان الحزب الإسلامي من الطائفة أ يرفع شعار الإسلام بلا مذاهب وشعار تقدم الأمة وشعار ضرب الطائفية، وكان نظيره من الطائفة ب يرفع نفس الشعارات، فكيف يفشل الحزبان في العمل الإئتلافي الذي يرتفع فوق المذاهب والنفس الطائفي؟

وإذا فشلا في هذا وهما يتألفان من أعداد لا تتجاوز نسبة ضئيلة من حجم الأمة فكيف نصدق أنهما سينجحان في جمع الأمة كلها أو معظمها أو ما يكفي لبعث روح النهضة فيها؟

لقد وجدت أن بعض هؤلاء "الصفوة" يرزحون تحت وطأة درجات من الجهل والعقد الطائفية بشكل أشد بكثير من غيرهم من التقليديين أو أنصاف المتعلمين، وما ذلك إلا لفشل واضح في التربية التي يتلقاها هؤلاء على المستوى التنظيمي الذي ربما اهتم بالجانب الفكري العقلي وأهمل الجانب السلوكي.

مثال رابع: العشيرة والبعد المذهبي

العشائريون، أي الذين تمثل العشيرة بالنسبة إليهم واحداً من أهم سمات هويتهم، ليسوا ملائكة، ولكن عندما تأتي المسألة المذهبية الطائفية فإنهم من أبعد الناس عنها! هذا الحال يأتي من نظام العشيرة الذي ينظر أول ما ينظر إلى مصالح أفراد العشيرة، ليس بالشكل الأناني الذي ربما يظنه القارئ، ولكن كنتيجة طبيعية لوجود الشيخ الذي يقف مسؤولاً عن نظام العشيرة أولاً وتحصيل مصالحها ثانياً، يعاونه كبار القوم في عشيرته. وكلما كانت العشيرة تعيش بعيدة عن الحواضر، أي في القرى أو الأرياف أو البوادي، كلما كان الحال أقرب إلى ما ذكرت، لأن اللحمة العشائرية تكون أقوى إذ غالباً ما يعيش أفراد العشيرة جميعهم جنباً إلى جنب على أرض واحدة لا يشاركهم فيها أحد.

وطالما كان هذا النظام يقوم بدوره الإيجابي في إبقاء السلم الأهلي في داخل العشيرة، وبينها وبين العشائر الأخرى، فقد أبقى الإسلام النظام العشائري كما هو في تنظيم الأمور اليومية، وفي المسألة المالية، فكان النبي (ص) يبعث مع وفد العشيرة الذي يأتي ويعتنق الإسلام إثنين من الصحابة واجبهما محدد هو تعليم العشيرة مجملات العقيدة والعبادات والمعاملات على أساس الشريعة وترك أمر جمع الأموال إلى شيخ العشيرة. فهو (ص) يجعل أمرهم المالي بأيديهم لأنه يتأثر بظروفهم الاقتصادية عموماً والطقس وغير ذلك، مع تعليمات مشددة إلى الصحابة المبعوثين بأن أول المستفيدين من الأموال المجموعة هم فقراء العشيرة نفسها ثم يرسل الزائد إلى المدينة.

هذا، مع أن هذا النظام العشائري ذاته يستبطن نقطة سلبية في غاية الأهمية، وهي طاعة رؤساء العشيرة حتى إن أدخلوهم في جانب الباطل أو أمروهم بعصيان الشرع. كان هذا واضحاً في انتظار أفراد العشائر لنتيجة الصراع بين النبي (ص) وقريش فلما حسم لصالح النبي (ص) دخلوا في دين الله أفواجاً، فكانوا كافرين لأن رؤساءهم قرروا البقاء على الكفر وصاروا مسلمين لأن رؤساءهم قرروا الدخول في الإسلام؛ ولم يخرج عن هذا إلا أفراد قلائل. كما كان واضحاً في انخراط عشائر كبيرة إلى جانب معاوية مع أنه يقاتل علياً (ع)، أي مع وضوح جانب الحق وجانب الباطل.

على أننا الآن نشهد، وهو الحال منذ قرون، أن العشائر صارت تضع في حسبانها فتاوى المؤسسة الدينية التقليدية، سواء الشيعية منها أم السنية، وإن كان الحال أشد في الأولى، بحيث صار ضرورياً على شيوخ العشيرة البخوع لفتوى المرجع الديني حتى على حساب المصالح الآنية للعشيرة، كما وجدنا في خروج عشائر الفرات الأوسط والجنوب الشيعية وبعض عشائر الغرب لقتال الغزاة الانجليز عندما دخلوا العراق عام 1914 وفي ثورة العشرين بعد سنوات، وذلك استجابة لفتاوى المؤسسة الدينية. وقد حصل الشيء نفسه في مناطق أخرى من العالم الإسلامي، كالجزائر وليبيا والسودان في مراحل مختلفة.

إذاً، فإن جهود التقريب ليست مهمة على المستوى العشائري طالما أن العشيرة تتمحور مواقفها حول مصلحة العشيرة وحول ما تعلنه المؤسسة الدينية التقليدية.

أبعاد الموضوع

نستطيع الجزم بأن قضية الخلاف الأساسية بين المذهبين الرئيسين الشيعي والسني هي قضية إمامة أهل البيت (ع) بشقيها التاريخي والديني : الشق التاريخي يتعلق بمسألة الخلافة التي نشأت في التاريخ الإسلامي منذ وفاة النبي (ص)، خصوصاً في الخلاف حول شرعية خلافة الخلفاء الثلاثة

أبي بكر وعمر وعثمان، والشق الديني يتعلق بإمامتهم (ع) العقائدية الفقهية: هل هم وحدهم مصدر العقيدة والأحكام؟ أم أن الصحابة كانوا أيضاً مصدراً لها؟

وكما أشرت سابقاً إلى أن الخلاف حول هذه القضية لم يمنع المعنيين الأصليين، أي علياً (ع) والخلفاء الثلاثة ومن ناصر الطرفين، من التعايش والتعاون؛ كما لم يمنع العلماء من المدرستين – بعد أن افترقت الأمة إلى مذاهب – وأتباعهم من التعايش والتحاور، بشكل ظل يضعف تدريجياً حتى وصلنا إلى ما نحن عليه من حالة تفرق وتباعد استدعت العمل التقريبي الوحدوي الذي نحن بصدده.

تلك الأحزاب–المذاهب التي نشأت نتيجة الخلاف – هي التي أدت إلى هذا الحال لأن طبيعة الأمور تحتم ذلك: تبدأ المدارس بأفكار بسيطة مبنية على المفاهيم والأطر العامة للشريعة، ثم تتوالى التفاصيل والتفريعات حتى تصل إلى قضايا هامشية ثانوية، ويتعمق البحث في الجانبين ولكن في القضايا الخلافية بشكل مركز مع اتجاه نحو الابتعاد عن الطرف الآخر بحيث إذا جاءت رواية تتفق مع الآخر وأخرى تخالفه فإن الجنوح هو نحو الرواية المخالفة حتى وإن كانت معارضة لصريح القرآن أو العقل أو الحديث الصحيح، ما يؤدي إلى زيادة مسافة البعد بين المدرستين.

أضف إلى ذلك نقطة أخرى غاية في الأهمية: إذا حصل أن إحدى المدرستين تم تبنيها من قبل الحكام المتسلطين بالقوة القاهرة وجرت طريقة الحكام على قمع المدارس الأخرى، كفكر أو كأتباع، فإن الحقد على أولئك الحكام ينتشر إلى المدرسة التي تبنوها، في ذات الوقت تشعر تلك المدرسة المتبناة بأن من مصلحتها الاندكاك أكثر مع الحكام وذلك لتعزيز موقعها الأثير ومصالحها من جانب ولحماية نفسها من ثورة الآخرين من جانب آخر.

وإلا كيف يكون منهج علي (ع) وهو أحد طرفي الخلاف الأساسي على ما وصفه في كتابه إلى أهل مصر (نهج البلاغة ج2): ((فما راعني إلا انثيال الناس على فلان – أي أبي بكر – يبايعونه، فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص)، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه))، ثم نصل إلى مستوى أن يمتنع البعض عن مجرد الدعاء لنصرة مسلمين مجاهدين وهم في خضم المعركة مع أشد أعداء الأمة بنص القرآن؟

صحيح أن مثل هذا ليس على منهاج علي (ع) أصلاً، ولكني أريد الإشارة إلى الصورتين في ذلك العهد الأول وفي زماننا. وإن شئت، فقل لمن يمنع حتى الدعاء للمجاهدين لأنهم يخالفونه مذهبياً، أن الخليفة الأول يقول لفاطمة الزهراء (ع) وهو في خضم جوابها على تقريعها له ولأصحابه على ما فعلوه بآل محمد (ص): "لا يحبكم إلا سعيد ولا يبغضكم إلا شقي بعيد فأنتم عترة رسول الله الطيبون الخيرة المنتجبون على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسالكنا" فلم يخرجه الموقف الحرج الذي وضعته الزهراء (ع) فيه من أن ينوه بمنزلتهم (ع)، بمعنى أنه أراد الخلافة فقط، فلا نزاع في أن أهل البيت (ع) هم الطيبون المصطفون والدليل إلى الخير والطريق إلى الجنة. فكيف صار أتباعهم (ع) من السوء بحيث تمنع نصرتهم، ليس بالسلاح والعتاد والمال والمؤن، ولكن حتى بالدعاء فقط؟ هذا ما أتكلم عنه.

نظرة الطائفتين إلى التقريب والوحدة الإسلامية

لذا، تجد أن هذا وأمثاله ممن هم على مذهبه المتشدد لا يؤمنون بمسألة التقريب أصلاً لأنهم يرونها جهداً بين مسلمين وغير مسلمين – هذا هو موقف المدرسة السلفية (الوهابية).

أما أهل السنة، فهناك موقفان:

الأول أنه يعترف بإسلام الشيعة وعليه فإن مذهبهم من المذاهب الإسلامية موضوع البحث في قضية التقريب، ولكنه يخشى من تسرب عقائد الشيعة إلى المسلمين السنة، فهؤلاء يبدون وجهاً آخر فيدعون رغبتهم في التقريب وحرصهم على الوحدة، ولكنهم لا يتقدمون خطوة في هذا الاتجاه.

الثاني يؤمن بالوحدة ويدعو إلى تفعيل جهود التقريب برغبة صادقة ويشارك في تلك الجهود، ذلك أن الشيعة عنده هم مسلمون كغيرهم وأن الخشية من أفكارهم لا مبرر لها لاسيما بلحاظ الهدف الأكبر من جهود التقريب، وهو دفع الخطر عن الأمة بأسرها والسير نحو تقدمها بمجموعها.

أما الشيعة فهناك موقفان أيضاً:

الأول يشابه الموقف السني الأول، وهو الخشية من ذوبان المذهب الشيعي في المذاهب السنية، خصوصاً وأن أهل السنة يمثلون النسبة الأكبر من الجسم الإسلامي.

الثاني على العكس من ذلك ، فهو يؤمن بجهود التقريب، اتباعاً لنهج الأئمة (ع) في إشاعة روح الأخوة الإسلامية والأمة الواحدة من خلال نهجهم التوحيدي، وإدراكاً لحقيقة أن أعداء الإسلام لايفرقون بين المسلمين من شتى المذاهب، وأن بناء الأمة يحتاج إلى تعاون أبنائها من شتى الاتجاهات والمذاهب. لذا، فهم أشد الناس دعوة وتشجيعاً في إطار التقريب.

الفصل الرابع

فشل جهود التقريب وأسس النجاح

ما بين العام 2004م والعام 2006م جرت مراسلات ومؤتمرات من أجل التقريب بين المذاهب الإسلامية، بدأت برسالة عمّان التي أرسلها ملك الأردن إلى أربعة وعشرين عالماً من كبار علماء المسلمين يمثلون جميع المذاهب والمدارس الفكرية، تطلب توضيح الموقف من الأمور الثلاثة:

(1) تعريف من هو المسلم؟

(2) وهل يجوز التكفير؟

(3) ومن له الحق في التصدي للإفتاء؟

بالاستناد إلى الفتاوى التي وصلت، ومن بينها تلك التي من شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي والمرجع الديني آية الله السيد علي السيستاني والشيخ يوسف القرضاوي، تمت الدعوة إلى مؤتمر إسلامي دولي حضره مائتا عالم مسلم من خمسين بلداً، وانتهى المؤتمر بإصدار التوافق بالإجماع على ما محصله ما يلي:

(1) إنّ كل من يتّبع أحد المذاهب الأربعة من أهل السنّة والجماعة (الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي) والمذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي، والمذهب الظاهري، فهو مسلم، ولا يجوز تكفيره. ويحرم دمه وعرضه وماله... ولا يجـــوز تكفير أيّ فئة أخـــرى مـــن المسلمين تؤمـــن بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم وأركان الإيمان، وتحترم أركان الإسلام، ولا تنكر معلوماً من الدين بالضرورة.

(2) إنّ ما يجمع بين المذاهب أكثر بكثير ممّا بينها من الاختلاف.

(3) إنّ الاعتراف بالمذاهب في الإسلام يعني الالتزام بمنهجية معينة في الفتاوى: فلا يجوز لأحد أن يتصدّى للإفتاء دون أن يتمتع بمؤهلات وشروط موضوعية معينة يحددها كل مذهب.

وفي مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في كانون الأول/ ديسمبر 2005م تم تبني هذه النقاط. ثم في ستة مؤتمرات إسلامية عالمية أخرى.

النتيجة: هي اتفاق، بالإجماع، بين أكثر من 500 عالم إسلامي بارز في مختلف أنحاء العالم، ما عد بمثابة إجماع تاريخي في الأمة لأنها المرة الأولى التي يتم الاعتراف الرسمي – من قبل جهات إسلامية رسمية – بالمذاهب المتعددة، وأن هذا الاعتراف ملزم قانونياً للمسلمين.

السؤال هو: كم من المسلمين سمع بهذا الحراك وهذا الاتفاق؛ أو بالأحرى التزم ببنود هذا الاتفاق؟

إستمع إلى الكثير من خطب الجمعة في الكثير من البلدان الإسلامية أو غير الإسلامية، هل تجد تأثيراً لهذا الإجماع على الخطباء؟

تصفح المواقع الإسلامية على شبكة الانترنت، وبضمنها مواقع لحركات إسلامية تدعي العمل من أجل وحدة الأمة، هل تجد أثراً لهذا الاتفاق الكبير بين مئات العلماء؟

إستمع لما يقال على بعض الفضائيات، واقرأ الفتاوى، وتصفح مواقع التواصل على الانترنت، وانظر في المواقف السياسية للأفراد والحركات والحكومات، هل تجد صدى إيجابياً لهذا الاتفاق بالإجماع؟

في أي مشروع من المفيد أن يتم الانتباه من البدء إلى مواطن الضعف التي يمكن أن تؤدي إلى الفشل من أجل إدراجها في جدول العمل ذاته.

فإذا قمنا بذلك فنظرنا إلى ما يعرقل جهود التقريب نجده يتشابه مع غيره. خذ مثلاً مجموعة من الأصدقاء ينوون تأسيس مطبعة لطباعة الكتب السياسية والاجتماعية والدينية – الذي يبحث في المعرقلات الممكنة فإنه يجدها في الأمور الثلاثة الواردة في التعريف: الأصدقاء والمطبعة ونوعية الكتب. ذلك لأن الأصدقاء لهم أمزجة مختلفة وذهنيات مختلفة ونفوس انطوت على

عقد أو مشاكل غير ظاهرة حتى باتجاه الذين ينوون مشاركتهم. أما المطبعة فإنها يمكن أن تحمل معها جملة من المشاكل الفنية والاقتصادية سببها اختلاف التصنيع والمنشأ والقدرات الطباعية وما تحتاجه من مواد وصيانة وقطع غيار وتدريب للعمال. الكتب التي ينوون طباعتها فيها محددات سياسية خصوصاً إذا كان المشروع في بلد يحكمه منهج التسلط ومنع الرأي الآخر، ومحددات اجتماعية تمنع حرية تناول بعض المواضيع الحساسة، ومحددات دينية تمنع المس بالمقدسات أو ما يعتبره المجتمع أو بعض أفراده من المقدسات، وهكذا. بعبارة أخرى، أن المعوقات الممكنة تتمثل في النفس والوسيلة والهدف.

أسباب الفشل

ولا يخرج موضوع التقريب عن هذا، فإن المعوقات هي:

(أ) في نفوس المساهمين في عملية التقريب، وفي نفوس أصحاب ردود الفعل على العملية أيضاً.

(ب) في وسائل العمل من مؤتمرات وكتابات

(ت) في الهدف من التقريب – هل هو دمج المذاهب فكرياً وعقائدياً، أم تقريبها فكرياً وعقائدياً، أم تقريب أتباع المذاهب وإزالة التباعد والتباغض بينهم وإحلال المحبة وروح التعاون مكان ذلك؟

والآن، لو تناولنا هذه المعوقات واحداً واحداً فإننا سنجدها كلها تدور حول السبب الأول وهو: ما يتحرك في دواخل النفوس أو ماتختزنه مطاويها من مواقف ذاتية لا تمت إلى العقل وإلى الموضوعية بأي وشيجة.

وهذا هو الآخر مورد تماثل مع غيره من المشاريع. فإن مشروع المطبعة المذكور مثالاً أعلاه سيجد أن ما يتعلق بالمطبعة نفسها **يتم** الوصول إلى قرارات وحلول حوله بحيث ستعمل المطبعة كما يجب، إلا أن أي مشاكل في داخل نفوس الأصدقاء أصحاب المشروع ربما يبقى كامناً ولا يؤدي إلى ضرر بالمشروع نفسه آنياً، ولكنه من الممكن أن ينفجر في أي مرحلة من مراحل تنفيذ المشروع. نعم، كثرما يصادف الشركاء مشاكل تنبع من اختلاف العقليات، ولكن هذه يمكن تجاوزها إذا خلصت النيات وتجاوز الشركاء الأنانية والكبر والأثرة، وهي كلها مشاكل نفسية تندرج في الأمر الأول.

إلا أن موضوع التقريب أعقد كثيراً من جميع ذلك لأنه يمس المقدسات ويمس علاقة الإنسان المسلم بربه، وبالتالي فإن ما في النفوس سيكون من الصعب التعامل معه لأن سخونة المواضيع ذات العلاقة أشد من أن يحتمله الناس، فإن احتمله الخاصة المتصدون أو المهتمون، فإن العامة لا تحتمله وستؤثر بدورها على الخاصة، بل أن بعض الخاصة المتعصبين سيثيرون العامة لإبداء المعارضة عالية الصوت لإفشال المشروع.

الأساس هو الفشل على المستوى الشخصي

المفروض أن العلماء يتعاملون مع الأمر بعقلية علمية تنظر إلى الدليل والحجة، ولكن الواقع هو أنهم يعيشون أسرى العقد الطائفية التي تأسست من أقوال علماء سابقين وضعوا الطرف المقابل إما في إطار إخراجه عن الإسلام بالكلية أو إطار الانحراف والفسق.

إن التوجيه القرآني ((إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)) يردف ذلك بالقول ((ولا يلقاها إلا الذين صبروا، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم)) فصلت:34 ليقول لنا أن تجاوز الإحساس بالظلم الذي أوصل الطرفين إلى درجة العداوة بحيث يتم التعامل مع الآخر المعادي كولي، بل ولي حميم، يقول لنا أن هذا يحتاج إلى صبر وحظ عظيم بهدي من الله ورحمة، وما ذلك إلا لأن النفس الأمارة ستكون عصية على الإنسان في اتخاذ مثل هذا الموقف.

هؤلاء العلماء المشاركون في جهود التقريب، كم منهم يتحدث بصراحة مع الطرف المقابل؟ وكم منهم يضع على الطاولة جميع أحاسيسه وعقده تجاه المقابل كي يدرج في جدول الأعمال؟

ولكن كيف نطلب من هؤلاء التصريح بما في نفوسهم في الحوار عبر المذاهب إذا كان العلماء داخل المذهب الواحد يفشلون فيه؟ كم نسمع أن

العالم الفلاني عنده موقف سلبي من فلان أو من القضية الفلانية، ثم يتوجه الناس بالسؤال إليه فينكر، ثم يعود معاونوه للتأكيد على موقفه السلبي ذاك، فلا يدري الناس هل أن الخبر صحيح أم لا؟ هذا عالم واحد وخبر واحد، فكيف بالتقريب بين مذاهب تعيش هذا الحال من التباعد وسوء الظن.

مسألة أخرى: الخلل في الأولويات. القرآن ذاته يفتح المجال أمام الحوار حول كل شيء وبضمنه وجود المولى عز وجل، ولكن أصحاب المذاهب يجدون من الصعوبة بمكان الحوار حول رجال ونساء من السلف صار بعض الأمة يقدسهم والبعض الآخر يطعن فيهم، مع أن المعنيين أنفسهم لم يكونوا يرون في أنفسهم تلك القداسة. بل أن البعض يذهب إلى الحوار العلمي مع من لا يؤمن بالله تصريحاً أو تلميحاً، ولكنه لا يستطيع الدخول في جهد تقريبي مع من يؤمن بالله ويقوم بالتكاليف الشرعية... فقط لأنه يطعن في بعض الأفراد من السلف، فكأن هؤلاء الأفراد صاروا أهم من المبادئ. وحتى إن قبل الحوار فإن وضعه النفسي يكون في حالة أخرى يغلب عليها التشنج والتوتر والعيون الحمراء.

التكفير

هذا الأمر الخطير لم يزل المسلمون يعيشونه منذ بدأ تيار التكفير الخارجي (نسبة إلى الخوارج) أيام الإمام علي (ع)، وكان يشتد ويضعف

حسب الظروف السياسية غالباً. أنظر إلى الطرفين في هذه الرواية (صفات الشيعة للصدوق حديث 29) عن الصادق (ع) يصف شيعته ويصف أعداءه: ((همكم معالم دينكم، وهم عدوكم بكم وأشرب قلوبهم لكم بغضاً، يحرفون ما يسمعون منكم كله و يجعلون لكم أنداداً ثم يرمونكم به بهتاناً فحسبهم بذلك عند الله معصية)). فهي تمدح الشيعة وتقول لهم بأن نفوس أعدائهم امتلأت كراهية لهم؛ أكثر من ذلك، فإنهم يحرفون ما يقوله الشيعة ثم يجعلونه تهماً لهم بالباطل.

طبعاً، هذه الاتهامات من الطرف إلى الطرف الآخر ليست وقفاً على السنة ضد الشيعة، بل هي منتشرة بين الجميع. فبعض الشيعة يعتقد أنه طالما أن أهل السنة يحبون بعض مناوئي أئمة أهل البيت (ع) إذاً هم لا يحبون أهل البيت (ع)، مع أن أهل السنة إنما يحبون أولئك الخصوم جهلاً منهم بحقائق الأمور حسبما تراه الشيعة.

أشد تأثيراً ربما هم الخطباء والوعاظ، ومنهم من لا ينتخب في تواصله مع الناس إلا ما يثير الحساسيات والمخاوف وسوء الظن وكراهية الآخرين. فمثلاً، إن من يوصل إلى الناس أمثال الأحاديث أعلاه لا يوصل إليهم أحاديث أخرى تدعو إلى النظر إلى الآخرين على ضوء المعيار القرآني. مثال على ذلك رواية (بحار الانوار مجلد 65 ص164) تروي عن زرارة

(وهو من أصحاب الباقر والصادق (ع)) قوله: "دخلت أنا وحمران على أبي جعفر (أي الباقر) عليه السلام فقلنا: إنا نمد المطمر، فقال: ((وما المطمر؟)) قلنا: الذي من وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن خالفنا برئنا منه من علوي أو غيره؛ قال: ((يا زرارة قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله: إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً)) أين المرجون لأمر الله؟ أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؟ أين أصحاب الأعراف؟ أين المؤلفة قلوبهم؟)) فقال زرارة: إرتفع صوت أبي جعفر وصوتي حتى كان يسمعه من على باب الدار، فلما كثر الكلام بيني وبينه قال لي: ((يا زرارة حقاً على الله أن يدخلك الجنة))".

فهذه الرواية تبين: أولاً أن المخالفين يدخلون في أقسام مختلفة فمنهم من صار في المخالفين عن جهل ومنهم من أمره إلى الله فلا يجوز إعطاء رأي حاسم بشأنه ومنهم من خلط عمله السيء في مخالفة أهل البيت (ع) بأعماله الصالحة وغيرهم؛ ثانياً أن بعض شيعة أئمة أهل البيت (ع) أشد على المخالفين من أئمتهم (ع) وهذا لا يكون إلا نتيجة غلبة العاطفة وتوجع القلب على ما جرى عليهم (ع) على التقييم العقلي المطلوب. على أية حال، مثل هذه الرواية تخفف من حدة التوتر عن طريق التذكير بالمعايير القرآنية، التي أخذت من تطبيق المعصوم (ع) نفسه وليس من اجتهاد مجتهد.

أما أسباب هذا التوجه فهي الجهل بما يقوله الآخر أو ما يقصده، فيتوجه الناس إلى رمي الآخر بالانحراف أو البدعة أو الفسق وحتى الكفر، وكل ذلك دون حاجز من تقوى وكأنهم لا يقرؤون قوله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم)) الحجرات:12. حتى مسألة التقية التي يرمى بها الشيعة دائماً من أجل نسف إمكانية اللقاء إنما هي مبدأ إنساني قرآني عام هدفه حفظ النفس، ولطالما كان الشيعة – ولا يزالون – عرضة للقتل لتشيعهم. ولكن السني الذي يملؤون رأسه بهذه التهمة ضد الشيعة لا ينتبه إلى أنها مبدأ عقلائي أقره القرآن الكريم (كما في قصة عمار بن ياسر المعروفة)، ولا ينتبه إلى أنه هو نفسه يمارسها للحفاظ على نفسه، وإلا ما هذا النفاق والتزلف المنتشر للحكام بل حتى لشرطتهم ومخبريهم إن لم يكن لحفظ المال والنفس والعرض؟ ولا ينتبه إلى أن الشيعة صاروا ينشرون أفكارهم في كل مكان، فأين التقية من كل هذا؟

النتيجة: الانعزالية والانغلاق

نتيجة تلك الاتهامات والروايات –على فرض صحتها، وبعضها صحيح بدون شك – هي ابتعاد كل فريق عن الفريق الآخر إلى درجة الانعزال، شبه التام أحياناً، والانغلاق على النفس. ولا يشعر فرد من هؤلاء بهذا الواقع المؤسف إلا عندما يجد نفسه على مقربة من غيره من أتباع المدرسة

الأخرى، في ساحة دراسية أو وظيفية أو اجتماعية أو عمل مشترك ، فيشعر بأن روافد تكوينه تختلف في بعضها عن روافد تكوين الآخر، فيذهل أمام حقيقة أن أهم روافد ذلك التكوين هي المشتركات من إيمان بالتوحيد والنبوة والمعاد، والاشتراك في وطن واحد أو قومية واحدة أو نشأة متشابهة في مجتمع واحد.

وليس هناك بيئة أفضل لنمو الافتراءات والتهم، ثم تصديقها، ضد الآخر من بيئة الانعزال والانغلاق، لأن الآخر غير موجود ليرد على ما يتهم به ويفترى عليه.

على أن هناك من يجد أن الانعزال هو الالتزام الحقيقي بالدين لأن الآخرين ليسوا سوى منحرفين. لذا، لا يجد هؤلاء حرجاً من التركيز على الاختلافات وإهمال المشتركات، ولما كانت الاختلافات قد نشأت نتيجة الخلاف بين المسلمين في الصدر الأول فإن من المنطقي أن يكون التركيز على أولئك الأشخاص لا ما يمثلونه من قيم يؤمن بعلوها أتباع كل منهم.

ويقوم بعض العلماء بدورهم في هذا النهج الانعزالي الانغلاقي التمزيقي وذلك بنسف أي إمكانيات لمد جسور التفاهم أو تخفيف حدة التوتر. مثلاً يجعلون من "خالفوهم" مبدأً فقهياً، فتكون السنّة هي التختّم باليمين فتصبح بالشمال لأجل المخالفة ليس إلا... حتى شكل اللحية صار عنواناً لهذا المذهب أو ذاك مع أنها أمر ثانوي تماماً!

وإذا ما جوبه هؤلاء بأنه على الرغم من أن بعض الاختلافات أساسية إلا أن الكثير الغالب منها ثانوي فإنهم يشرعون بتعداد نقاط الاختلاف في أصول الدين ذاتها، من حيث الاختلاف في الله تعالى والعدل الإلهي وعصمة النبي (ص) والمعاد وتفسير بعض آيات القرآن، لينتهوا إلى أن الخلاف أكبر من أن يعالج.

ولا شك في وجود اختلافات في جميع هذه الأمور، ولكن النظر هنا في أمرين:

الأول، هو نقاط الاتفاق الأساسية في كل من الأمور الخلافية في الأصول تبقى أكبر، فإن الإيمان بوجود الله وتوحيده توحيد الألوهية والربوبية والحاكمية والرازقية وغيرها يبقى أهم من جميع الاختلافات حوله سبحانه؛ كما أن الإيمان بنبوة محمد (ص) وكونه خاتم المرسلين وسيد الخلق أجمعين المتفق على البخوع لأوامره ونواهيه يظل أكبر من الخلاف حول الأمور الأخرى؛ حتى الإمامة فإن الاتفاق على أصل الإمامة ثم على لياقة أهل البيت (ع) للإمامة يظل عنصراً هاماً في تهدئة النفوس التي تحترق لظلامة أهل البيت (ع) وتلك النفوس التي تحترق للنيل من الصحابة؛

الثاني، هو النظر في "فوائد" الانعزال والانغلاق مقابل "فوائد" التواصل والانفتاح، وذلك فيما يخص تطور الأمة التي تحتاج لأجله إلى

الهدوء والسلم الأهلي وإشاعة روح المحبة والتعاون، وما يخص الدفاع عنها ضد أعدائها ومؤامراتهم وهجماتهم المستمرة.

فشل المفكرين

ربما يظن البعض أن هذا الفشل لا ينطبق على المفكرين الذين يفترض أن العنوان ينطبق عليهم تماماً لا جزافاً، سواء أكانوا مفكرين إسلاميين أم علمانيين أم لا دينيين. فالجميع تجدهم – أو معظمهم – يفشلون في التخلص من رواسب التنشئة الطائفية، فالواحد منهم عندما يبحث في القضية الخلافية أو القضية الطائفية بالخصوص تجده يحاول منذ اللحظة الأولى إثبات صحة وجهة نظره وأحقيتها وخطأ وجهة نظر الآخر وبطلانها؛ فإذا ما كان أكثر إنصافاً مع الحق فصارع دخيلة نفسه وحاول طرح حجج الآخر فإنه إنما يفعل ذلك لكي يفندها؛ فإذا وجد أن هذه الحجج قوية فإنه إما أن يقلل من شأنها أو يأتي بأجوبة لها ويعلن أنها تثبت وجهة نظره حتى وإن كانت الأدلة غير مقنعة، أو أن يلغي حجة الآخر بالتشكيك في أصالتها أو مصدرها.

أما إذا وجد شيئاً يدين الآخر فإنه الصيد الثمين الذي يجعله يصول ويجول لتسقيط الآخر، حتى وإن كان هذا رواية مشكوكاً في صحتها عند الآخر نفسه، أو لها دلالات غير التي ذهب صاحبنا إليها، أو هناك ما

يعارضها ولكنه غفل أو تغافل عنها؛ وحتى لو كانت تمثل وجهة النظر الشخصية للآخر فهو يجعلها مبدأً من مبادئ المذهب الآخر ويؤسس عليها حكماً يعممه على جميع أتباع ذلك المذهب.

وكل ذلك في غياب للتقوى التي ينبغي أن تعين الباحث على تحري الدقة وعلى الإنصاف حتى مع المخالفين، بل الأعداء، كما نعلم من خلال التوجيهات القرآنية الواضحة الداعية إلى اجتناب الظن وتحري العدل حتى مع الذين نحمل لهم الشنآن وعلى عدم القول إلا بعد التأكد لأن السمع والبصر والقلب مسؤولون أمام المولى عز وجل. وكل ذلك في غياب الذهنية العقلانية التي تنتظر من "مفكر".

على أن هناك نقطة مهمة مفادها: إن هؤلاء "المفكرين" ليسوا أحراراً فيما يفعلون، بل هم مسؤولون لأن المعرفة التي عندهم تضعهم في دائرة المسؤولية، فإذا ما كان أحدهم يشغل موقعاً مؤثراً – في الإعلام أو السياسة أو الأدب أو الفن أو غيرها – فإنه يصبح مسؤولاً عن كل كلمة يقولها. إن الشعور بالتعالي على المجتمع، الذي يجعل البعض من هؤلاء يشعر بأن من حقه قول أي شيء، يساهم بشكل أو بآخر في التمزق والانغلاق المذهبي.

فشل ونجاح

على الرغم من أن جهود التقريب لا تحقق إلا القليل، هذا مع أنها ضعيفة في الأساس – والقليل الضعيف لا ينتظر منه الكثير، إلا أن الجهد ليس ضائعاً تماماً، بل أن هناك أمراً في غاية الأهمية تحقق وظل متحققاً يقاتل من أجل الترسخ، وهو كسر المعوق الأول للتقريب ألا وهو عدم اللقاء أصلاً.

إن اللقاء يعد بحد ذاته نجاحاً، لأنه يعالج أول الأمور التي ينبغي علاجها، ألا وهو الانعزال والانغلاق وعدم الانفتاح على الآخر. فمجرد اللقاء يعني:

قبول الآخر ولو بدرجة ما من القبول؛

يعقبه الاتفاق على العمل من أجل التقريب وهذا يعني الاعتراف بثقل ووزن ما عند الآخر، سواء في الفكر أو الوجود في الخارج؛

ثم التشاور في الموضوع وهذا يعني مد اليد حقاً على طاولة البحث.

فلماذا الفشل إذاً؟

لأن الأمر يتوقف عند ذلك الحد نتيجة الضغوط الذاتية النفسية، والتي تؤثر على الفرد المشارك إما بسبب الحواجز النفسية الكبيرة عنده والتي كانت أكبر من قدراته على الصراع الداخلي الذي نجح في الخطوات الأولى

فحسب، أو التي تؤثر نتيجة الخوف على مصالحه، أو نتيجة الإقبال على دنيا يشار له بها. ولا شك في أن البعض عندهم موقف عقلاني متأسس من فهمهم لما عند الآخر بحيث يرون حقاً أن اللقاء مع الآخر لا ضرورة له، بل لا مبرر له، بل ربما فيه خطورة على أتباعه كما ذكرنا سابقاً.

أسس النجاح

إن التفاصيل ربما تغرق الباحثين والمتصدين لقضايا التقريب والوحدة بحيث يتم إهمال القضايا الكبرى موضوع البحث. لذا، فإن تركيز العين على الأسس لمثل هكذا جهود يعد أمراً لا غنى عنه من أجل محاولة تحقيق الهدف أو على الأقل جزء منه. والأسس هي أطر عامة بدونها لا يمكن تحقيق شيء من الهدف، بل لا يمكن القيام بعملية تقريبية ذات معنى. وإلا، هل أن التفاصيل الخاصة بقاعة المؤتمرات والموائد العامرة واستخدام أحدث وسائل الاتصال وانبثاق اللجان ونشر المقررات في أفضل المطبوعات يعني شيئاً إذا كان الحقد والبغضاء يملأ قلوب الحاضرين أنفسهم وكانت اللجان تقوم بكل نشاطاتها تلك على نحو المجاملات فقط ولا تذهب أنى أبعد من ذلك؟!

أول تلك الأسس: هو اتخاذ الإسلام قاعدة انطلاق البحث، أي أن يكون الإسلام كعقيدة وشريعة وأخلاق هو المحرك لكل من المشتركين في مثل هذه العملية. ومعنى هذا هو أن يعقد المرء عقداً بينه وبين ربه أن يكون

الحق الذي يتبين له هو مبتغاه، فلا يكون الإطار هو ((إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون))؟

ثاني تلك الأسس: هو منهج القرآن في البحث والحوار والنظر يجب أن يكون هو المتبع، وهو منهج يوضح وجهة النظر بهدوء واحترام للآخر، ويعطي الآخر حقه في توضيح وجهة نظره والرد، لينتهي إما إلى حالة اتفاق أو حالة بقاء الخلاف وفي الحالتين لا يخدش الاحترام ولا التعايش.

ثالث الأسس: أن تكون مصلحة الإسلام والمسلمين العليا مقدمة على غيرها، وهذا مبدأ إسلامي أصيل ينبثق عن مبدأ الأمة الواحدة، وتم تطبيقه من قبل أئمة الهدى من أهل البيت (ع). أذكر لتوضيح هذا المبدأ وهذا المنهج بأجلى صوره في شرح علي (ع) لموقفه بعد استخلاف أبي بكر – قال (ع): ((فما راعني إلا انثيال الناس على فلان – أي أبي بكر – يبايعونه، فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص)، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه)) نهج البلاغة جزء 2 كتاب 62.

رابع الأسس: ما يستفاد من أعلاه، وهو الانتباه المستمر الراصد بدقة كاملة لما يقوم به الأعداء من محاولات الدخول إلى الأمة عن طريق نقاط ضعفها، ومن أشد هذه النقاط ضعفاً هي التفرق والتمزق، على شاكلة محاولة أبي سفيان ضرب الإسلام من الداخل عندما عرض على علي (ع) والعباس بن عبد المطلب النصرة لإسقاط أبي بكر، فرده الإثنان، ذلك المنهج الذي ينظر إلى مصالح الإسلام من زاوية رد محاولات الأعداء.

خامس الأسس: التخطيط السليم لمثل هذه الجهود كي لا تكون جهوداً استعراضية من أجل إسقاط الفرض كما يقال.

سادس تلك الأسس: أن يحيط العمل بمختلف جوانب الموضوع الخارجية، فيشمل كيفية نظرة كل جانب إلى الآخرين والتي يجب تحويلها مباشرة إلى الجماهير، كي تشيع روح المحبة والاحترام واحترام الدماء والأموال؛ ويشمل المنع من قبول أي تنازل عن المصالح المشتركة للمسلمين؛ ويشمل توجيه الدعاة والخطباء والمفتين وحتى الكتاب والشعراء أن يراعوا مصالح الأمة ومصالح المسلمين فيما يقولون ويوجهون، جاعلين نصب أعينهم هم ونصب أعين من ينصت إليهم الالتزام بالمصالح العليا للأمة بحيث يكون بحث موارد الخلاف بذات المنهج القرآني الهادئ الذي يحترم الآخرين؛ كما يشمل الاهتمام بالجوانب العملية التي يمكن لها أن تلعب دوراً في بناء الجسور.

سابع تلك الأسس: الحرية، فإنها تكاد تكون غائبة في ذهنيتنا ومناهجنا التعليمية والسياسية والاجتماعية، وما ذلك إلا لترسخ القهر السياسي السلطاني عبر القرون أولاً، ولضعف الثقة بالنفس ثانياً، وهذا من أسباب خوف البعض من دعوة الآخرين إلى مذاهبهم بحيث يصمونها بأنها تبشير! – وبدون الحرية لا يستطيع حتى المجتمعون في مؤتمرات التقريب مهما كان مستواهم العلمي ومهما كانت مراكزهم في المجتمع أن يفعلوا الكثير لأنهم هم أنفسهم ليسوا أحراراً.

ثامناً: الوضوح والدقة في تحديد الأهداف مرحلة مرحلة، لأننا نجد أن معظم من يدعون إلى وحدة المسلمين يفعلون ذلك على شكل شعارات وأمنيات تربط الناس بالماضي دون وضوح ولا تجسير لذلك الماضي بالحاضر، مثلاً كتب البعض يقول: "ولا سبيل لصد العدوان ومواجهة مخططات التفرقة، إلا بأن تعتصم الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها على فهم الصدر الأول، فهم سلف الأمة من الصحابة ومن بعدهم من خير القرون، الذين فقهوا عن الله مراده، وعن الرسول (ص)، وبذلك نهضوا فكانوا أمة واحدة، شرقت وغربت ففتحت الآفاق، ونشرت الضياء... فهلا اجتمعنا مؤتسين بهم، متبعين طريقهم؛ لنسود كما سادوا، فبهذا تصلح الأحوال"، فهذا همه الإشادة بالسلف من الصحابة والتابعين، وهدفه إنجاز الفتوح من

جديد، فلا عمارة الأرض ولا النهوض بالإنسان، ولا القضاء على الظلم، ولا إزالة ما انطوت عليه النفوس، دون تحديد لا للمنهج ولا للروح، لأن الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة على فهم الصدر الأول يعني فهم الماضي البعيد، بل فهمه هو لذلك الفهم الماضي! لذلك ترى الكثيرين من هؤلاء يتمنون الطريق السريع فينادون خالداً أو صلاح الدين أو غيرهما ليحققوا لهم المعجزة!

تاسعاً وأخيراً: أن تتم جميع هذه الخطوات على أساس العلم، وهو ما يبدو بديهياً ربما ولكن الحقيقة هي أن معظم الأمور التي ذكرناها أعلاه إما يتم إهمالها أصلاً نتيجة الجهل بأهميتها أو الجهل بتعليمات الإسلام في التعامل مع الآخر والنظرة إليه، وإما يتم البدء بها ولكن دون توفير المستلزمات الضرورية من العلم بها وأسسها وأطرها وتفاصيلها، كما ينبه الشيخ عبد المجيد سليم رحمه الله (من رواد التقريب الأزهريين) إلى الآية الكريمة ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)).

الفصل الخامس

البعد الفردي – لماذا هو الأساس

قلنا أن المعوقات في طريق العمل التقريبي والوحدوي لا تتعلق بالأهداف المرجوة من العملية ولا بالوسائل المتبعة من أجل تحقيق تلك الأهداف فحسب، ولكن أيضاً بما يكمن داخل نفوس المشتركين في العملية أو المتفاعلين معها أو المتأثرين بها.

وأشرنا إلى دور العلماء والوعاظ والخطباء والدعاة في ترسيخ حالة التباعد والتفرق التي تعيق الجهود الرامية لبلوغ درجة التعامل الإيجابي مع حالة التمزق والضعف والتخلف التي تعيشها الأمة.

أما العلماء فإنهم لم يستطيعوا التخلص من التنشئة منذ الصغر بشكل عام ولا التحرر من النظرة إلى الآخر باعتباره منحرفاً أو مبتدعاً أو أسوأ من ذلك، بحيث تجد معظمهم يضيقون ذرعاً بنقد أي مورد واضح للنقد في المذهب الذي ينتمون إليه ولكنهم يبيحون لأنفسهم الانقضاض على الآخر أو التهجم عليه وتفسيقه ورميه بالتبديع، وحتى التكفير أحياناً. وبعبارة أخرى، تغيب عن الكثير منهم، الذهنية العلمية الموضوعية،

ناهيك عن ضعف في التقوى عندما يتعلق الأمر بالنقل عن الآخر وتأويل كلامه.

ولأن الأمور الخلافية تخص جوانب معينة فإنك تجدهم أكثر مرونة في البحث حول أمور هي أكثر أهمية من الأمور الخلافية. مثلاً: يجد البعض أن البحث الموضوعي مع المسيحيين حول طبيعة المسيح (ع) أمر ممكن، بل واجباً، على أساس التوجيه القرآني ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)) العنكبوت:46، لكنهم يجدون أنفسهم مقيدة ومكبلة عندما يتعلق الأمر بتناول الخلاف في الرأي حول منازل أشخاص يبقون – مهما علت منازلهم – عباداً لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، مع أن الخلاف حول الله والمسيح (ع) خلاف في الأصل الأول للإسلام وهو التوحيد الذي تتفرع منه باقي الأصول والفروع.

أما الوعاظ والخطباء فهؤلاء قصة أخرى إذ أنهم أشد تأثيراً على الجمهور بسبب تماسهم المباشر معهم. وقد وصف بعض هؤلاء بأوصاف تدين ما يقدمونه إلى الناس، مثلاً أنهم "قصّاص" يستخدمون القصص معرفة منهم بشدة تأثيرها على الناس. وإذا كانت القصة الواقعية – على فرض حسن النية، أي أن الرجل على المنبر لا يكذب وهو يعلم أنه كاذب – لها هذا التأثير المعروف، فكيف بقصص الرؤيا والأحلام التي تروى وكأن

ما تحمله من معان لا شك فيها يتفاعل معها الجمهور وكأنها قصص حقيقية.

العقل والشعور

هذه الأمور النفسية التي "يعاني منها" الفرد عموماً وفي مجتمعاتنا الشرقية خصوصاً، والتي بدأت منذ الصغر والتنشئة الأولى، وترسخت في المراحل اللاحقة عندما بدأ الوعي ينمو ويشتد، ثم صارت تتلقى الجرعة تلو الأخرى من الوعاظ والخطباء والدعاة والكتاب والشعراء والأصدقاء، وفي جميع المراحل تم الربط المحكم بين الأمور الخلافية وكراهية الآخر أو مُقَدَّسي الآخر وتفضيل التباعد والانعزال، فصارت القضية المذهبية قضية لا تتعلق بالمحتوى الفكري والمفاهيمي، بل صارت قضية تتعلق بالشعور والعاطفة، وعليه فلا يمكن القيام بأي بحث حول أي أمر خلافي بعيداً عن الانفعالات والتشنج والغضب إلى درجة السقوط في حالة الشتائم والسباب واللعن حتى وصل الأمر إلى قذف الناس في أعراضهم والطعن في أنسابهم جملة.

هذه الحالة تلمسها بوضوح إذا تصفحت مواقع شبكة الانترنت، لتجد – علاوة على الشتائم ورمي الناس في أعراضها – خفة في العقول والتقييم بحيث تقرأ المدح والثناء على السباب والقذف التي تتميز ليس فقط بالغياب التام للتقوى ولكن أيضاً بالسخف والرقاعة.

حتى الذين يظهرون على القنوات التلفزيونية الذين يراقبون أنفسهم فيما يقولون ويتصرفون، تجد بعضهم يجيب على أسئلة المشاهدين بمنتهى الرقة والمحبة الظاهرية للمسلمين، فإذا ما جاء سؤال يتعلق بالمخالفين أو ما يثيره المخالفون من مسائل، إنقلب إلى شخص آخر، فصارت يداه تتحرك بعصبية ووجهه يمتقع وعينه تنظر شزراً، فيأتي الجواب محملاً بالانفعالات التي تشوش الجواب على المشاهدين حتى إذا كان فيه شيء من العلم.

هذه الحال، المؤسسة على التنشئة والمترسخة فيما بعد ينبغي تناولها بشكل موضوعي لتفهمها ومعرفة مصدرها وكيف أن الذي يعاني منها – وهم أكثرية أفراد الأمة بدرجة أو أخرى – لا يقوم بأفعاله أو ردود أفعاله على ضوئها وهو يضمر في نفسه السوء، بل إن الغالبية العظمى من عامة الناس وشريحة كبيرة من العلماء والوعاظ والخطباء والكتاب والدعاة يعتقدون أنهم على الصواب في هذا النهج الذي يحفظ الحق الذي هم عليه، ذاهلين عن احتمال أن يكونوا على الباطل أو على خليط من حق وباطل، وهي حالة لا أظن أن مذهباً من مذاهب المسلمين نجا منها.

هذه الحالة حالة خطيرة جداً نقرؤها في قوله تعالى: ((وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)) البقرة:11-12...

كيف يعرف الفرد العادي من عامة الناس أن ما يعتقده حقاً إنما هو باطل؟

وكيف يعرف الخطيب والواعظ والداعية أن هذا التفسير وذلك التأويل وتلك الرواية وتينك التهمة للآخر باطل في باطل في باطل في باطل؟

بل كيف يعرف العالم أن هناك خللاً في مرتكزات اجتهاده بحيث أن ما توصل إليه هو باطل؟

كيف نعرف أننا لم نقع في الفخ الذي صورته الآية الكريمة: ((أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً)) فاطر:8؟

بل كيف نعرف أننا لسنا من موارد مصاديق قوله تعالى: ((قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً)) الكهف:103-104، فتضيع جهودنا ونخسر أعمالنا، فكأننا لو كنا جلسنا لا لنا ولا علينا لكان أجدى لنا؟

العصبية

إن النتيجة المتوقعة لغلبة المشاعر على العقل في التقييم، واستمرار التوجيه نحو الانغلاق والانعزال والبعد عن الآخر، هي العصبية المذهبية

الطائفية. إنها عصبية مذهبية طائفية لأن المشاهد المعاش واضح في أن العصبية تشمل الأمرين: التعصب إلى المذهب بما هو فكر ومفاهيم وعقائد وأحكام، والتعصب إلى الطائفة بما هي أفراد وجماعات وشعائر وممارسات ومصالح.

فإن ما ذكرته من النشأة والتربية والتوجيه منذ الطفولة مروراً بتفتح الوعي وحتى ترسخ المفاهيم والاعتياد على كلام وممارسات وتهم وافتراءات هي التي تشكل الهوية الدينية للفرد، فيصبح سنياً لا مسلماً سنياً، وشيعياً لا مسلماً شيعياً، لأن الأول يعني حالة الانعزال والانغلاق التي تؤمن بقاء المذهب صافياً من التأثيرات الخارجية في حين أن الثاني يعني تقديم العنصر الإسلامي في الشخصية وبما أنها موجودة عند الآخر فإن ذلك من شأنه توجيه الفرد – وإن بشكل خفيف – نحو التلاقي مع الآخر، ما يعارض التوجيه الانعزالي الانغلاقي.

وتصل العصبية مديات أعلى عندما نرى تقبل بعض المسلمين للتعايش والحوار الموضوعي مع غير المسلمين بينما نراهم يفشلون في ذلك مع المسلمين المخالفين لهم مذهبياً. ليست المشكلة في تفسير الأمر، لأنه من الواضح أنهم لا يشعرون بتهديد عقائد الأديان الأخرى بينما يشعرون بذلك التهديد من المسلمين المخالفين، لكن المشكلة في الأمر نفسه: كيف يمكن التعايش مع من تختلف معه في أهم الأسس وهو التوحيد والنبوة – أي

شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله التي هي عنوان الدخول في الإسلام والاستمرار عليه – ولا يمكن التعايش مع من تتفق معه فيها؟

وهنا تذكير بأمر هام: إن التوجيه الانعزالي الانغلاقي ومشاعر الكراهية والبغض ليس كله نابعاً من حسن النية عند الموجِّه، بل أن الكثير منه نابع من المصالح الذاتية الدنيوية – مناصب ووجاهة وشهرة وأموال، وعندها لا يهم من أين تأتي، فيتم قبول ما يأتي من أعداء الأمة وبالتالي فلا يمكن أن يكون ذلك إلا شراً (وبعد ما صار بعض مناطق الأمة يتمتع بالغنى الفاحش صار الأعداء لا يحتاجون حتى إلى الإنفاق من جيوبهم كي يقوم الموجِّهون بأدوارهم المدمرة).

أحاديث ضد العصبية

قال النبي (ص): ((أيها الناس ربكم واحد وأبوكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب)) رواه أحمد في المسند، والطبراني في الأوسط، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب 2964. وعليه فلم العصبية والأصل واحد، بمعنى أن الوحدة في الإنسانية ينبغي أن يكون لها أثر على التعامل.

وقال (ص): ((من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه))، ما يعني أن التعصب ارتداد.

ومثله حديث الإمام الصادق (ع): ((من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه)) (وسائل الشيعة ج11 ص296).

وحديث الإمام (ع) عنه (ص): ((قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): من كان في قلبه مثقال خردل من عصبية جعله الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية!)) نفس المصدر.

والله إن المرء ليشعر بالخوف الشديد من أن يكون قد سقط في تلك البئر العميقة، لأن "مثقال خردل" أقل من القليل جداً.

أما لماذا يصبح المتعصب خارجاً عن الإيمان، فلأنه يصبح عابداً للأهواء ومقدماً للجهة التي يتعصب لها – العشيرة أو القوم أو الطائفة أو الجماعة أو مواطني البلد –، مشركاً لها مع الله تعالى.

ويبدو عجيباً لأول وهلة أن الذي "يُتَعَصَّبُ له" هو الآخر خارج من الإيمان، إذ ما ذنبه هو إذا كان غيره هو الذي قام بفعل التعصب.

فلا يبقى إلا احتمالان:

الأول هو أن الشخص موضع التعصب كان هو الذي أمر أو شجع أو حث على التعصب له بوسائل مختلفة ومن خلال قنوات مختلفة، فهو الذي بدأ فعل التعصب؛

الثاني هو أن هذا الشخص لم يقم بما يجب عليه لإيقاف المتعصبين من التعصب له؛

أو أن كلا الاحتمالين واردان.

ولعلنا لا نجد تحذيراً بلغة أوضح وأكثر شدة وحسماً من هذا، ولكن مع الأسف فان العصبية مستشرية في الأمة، في كل زمان ومكان.

العلم والموضوعية مع التقوى

هذا لا يمكن أن يكون إلا باتخاذ منهج العلم والتعامل الموضوعي مع الأمور الخلافية من جانب، وتقييم الآخر والنظرة إليه من جانب آخر، فكما أنك غير مسؤول عن معتقدات وأفكار وممارسات جماعتك فإن الآخر غير مسؤول عن معتقدات وأفكار وممارسات جماعته وكلاكما غير مسؤول عن واقع الحال في الأمة، فلم العصبية ضده؟

وأذكر بقوله تعالى: ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)) المجادلة:11 للتنويه بموقع العلم بعد الإيمان. هذا الإيمان الذي لا يمكن أن يبقى غير مخدوش إذا تركته التقوى، لذا تجد القرآن ينبه إلى حالة التقوى المطلوبة في الكثير من الأحوال: ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً)) الأحزاب:70، ((ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا،

إعدلوا، هو أقرب للتقوى)) المائدة:8، ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)) براءة:119...

التقوى التي ينتظر أن تكون نصب أعين العقلاء أو الذين يريدون انتهاج النهج الموضوعي: ((واتقون يا أولي الألباب)) البقرة:197.

النهج الموضوعي وعقل الجماعة

ورد في الروايات الحث على التشاور وأخذ الرأي والنصيحة، من قبيل: ((من شاور الرجال شاركها في عقولها)) أو ((ما خاب من استخار ولا ندم من استشار))، التي توحي، بل تؤكد، فائدة التشاور ومحاولة الحصول على النصيحة – أي مثلما يطلب الإنسان العون البدني فإن من مصلحته طلب العون العقلي فيما يستعصي عليه أو ما هو غير متأكد منه.

لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن عقل الجماعة أفضل من عقل الفرد دائماً، فكم من جماعات ذهبت إلى التهلكة بعد أن رفضت نصائح أفراد قلائل منها، وكم من جماعات استفادت أيما فائدة عندما انتصحت. بل إن بعض الأفراد غيروا وجه الدنيا عندما استجابت لما جاؤوا به.

بالإضافة إلى تحذير القرآن الكريم من القبول التلقائي لما جاء من الآباء والأجداد لإمكانية كونه خطأ وباطلاً فإنه حذر في آية عظيمة من

الانخداع بعقل الجماعة (أو الجمعي كما يعبر عنه أيضاً) من خلال توجيه واضح بتناول الأمور بشكل مختلف. قال تعالى: ((إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى وتتفكروا)) سبأ:46.

في هذه الآية حث بأشد ما تسمح به اللغة، فقد استخدمت كلمة الحصر "إنما"، فكأن الحق تعالى يأمر رسوله (ص) بأن يقول للناس أنه لا يريد أن يعظهم إلا بهذه الموعظة، وهذا دليل على أهميتها البالغة – وإلا فإن المواعظ الربانية لا تقف عند هذه كما هو واضح.

ثم يأتي شكل التعامل مع الموعظة، بأن "يقوم" الناس، وهذه ربما تدل على شدة الأخذ بالموعظة، مقارنة بغيرها مما كان يمكن أن يستخدم، مثلاً "تتفكروا مثنى وفرادى" أو أن "تجلسوا"، لأن القيام أقوى كعمل بدني من غيره.

وأما الغاية فهي الله تعالى، لأن القيام "لله" وليس لأجل دنيا أو لأجل أحد من العباد.

ثم تأتي الموعظة بالتفكر من خلال إحدى حالتين: إما أن يتفكر الإنسان لوحده أو مع شخص آخر واحد فقط ليكونا إثنين. وهذا يعني أن يتفكر الإنسان لوحده إذا كان يجد في نفسه القدرة على النظر والتحليل والتركيب والتقييم والاستنتاج، أو أن يقوم بكل ذلك مع شخص آخر يجد

فيه تلك القدرات فيكمل أحدهما الآخر لأن الآخر ربما يطرح نقاطاً أخرى غفل هو عنها؛ أو أن يقوم بالأمرين معاً.

على أية حال، الآية واضحة في الحث على الابتعاد عن مجموعة من الناس، كبيرة أو صغيرة، وذلك لأن كثرة الآراء من شأنها إفساد التفكير الهادئ والتشويش على التعاطي، كما أن من شأنها الإعادة والتكرار غير المفيد، إضافة إلى اشتداد النزعات الداخلية من كِبْر واعتداد بالرأي وحسد وغيرها مما يستطيع الإنسان التعامل معها مع شخص واحد أمامه أسهل مما يكون مع جماعة، لأن الحرج والوجع الداخلي الناشئ من سقطاته وأخطائه أمام شخص واحد أقل شدة وإيلاما له مما إذا اطلع الملأ العام على ذلك.

الدعوة إلى أهل البيت (ع): الموقف الشخصي

وفيما يخصني شخصياً، كوني أدعو إلى طريق أهل البيت (ع) على أساس من المحبة والفهم للقرآن والسنة والتاريخ والسيرة، فإني أحب الإشارة إلى أن الدعوة إلى التمسك بمنهج أهل البيت (ع) ليست نشاطاً تبشيرياً طائفياً، وذلك لما يلي:

1- لأنها دعوة إلى فكر وعقيدة فهي محاولة لإقناع آخرين بوجهة النظر، أو توضيحها على الأقل، لمكسب دنيوي أو أخروي أو الاثنين معاً؛ أما

الدنيوي فيكاد في حالة التشيع يكون معدوماً، وأما الأخروي فإنه مضمون بدعاء الأئمة (ع) – مستجابي الدعوة – في قولهم: ((أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا)).

2- لأنها ليست للانتماء إلى الطائفة كطائفة، بل لعقيدة وفكر وجدتهما يعبران عن روح الإسلام في احتضانها للمفاهيم الإنسانية العامة من خلال مرجعية اتفق المسلمون على علمها وتقواها.

3- لأن الذين يحيا أمرهم أصحاب منهج توحيدي أبعد ما يكون عن الطائفية (أنظر الفصل العاشر فيما سيأتي).

4- هذه الدعوة إذا كانت في إطار منهاج متكامل لضرب الفجوة الطائفية فهي ليست طائفية.

5- الشيعة الذين يدعون إلى إحياء الأمر أثبتوا أنهم أقل من غيرهم طائفية فيما يخص الجانب الفكري، لأنه من الممكن أن يكون بعض غيرهم أقل تشدداً في مد الجسور في الجانب الاجتماعي مثلاً. أما الجانب الفكري فيمكنني القول بناء على الواقع المعاش:

أ- معظم الدراسات الشيعية تحتوي على إشارات إلى الفكر والرأي والفقه السني في حين تخلو الدراسات السنية من ذلك تماماً

ب- تحتوي المكتبات الشيعية على كتب السنة ولا يوجد العكس

ت- نفس الشيء بالنسبة إلى مكتبات بيع الكتب

ث- نفس الشيء بالنسبة إلى مكتبات الجوامع والمساجد والجمعيات الإسلامية

ج- مد اليد للتعاون في شتى المجالات

ح- معظم الشيعة ينظرون إلى السنة أنهم إخوانهم يجهلون الحقيقة وأن ذمتهم بريئة باتباع مذاهبهم السنية، في حين أن الكثير من السنة لا ينظرون إلى الشيعة إلا كونهم مبتدعة منحرفين. (نعم، هناك من الشيعة من يحكم على أهل السنة بالابتداع والخسران، ولكن هذا ليس موقف علمائهم الذين حكموا بأن الذي لم يعرف حقيقة أهل البيت (ع) ودورهم كأوامر إلهية نبوية أو يسمع بها، أو أنه سمع ولم يفهم، أو لم يقتنع، فهو بريء الذمة بما اقتنع به؛ فهو ليس من اقتنع ولكن استمر في إنكار ولايتهم، وهو الوصف الوارد عنهم (ع) ((من جحد ولايتنا بعد الإقرار)) الحديث.)

الفصل السادس

البعد الفردي – تناول المسألة من الشخص المعني

قلت سابقاً أن معوقات عملية التقريب أو أي عملية توحيدية تلخص في ثلاثة جوانب: الأهداف المرجوة، والوسائل المتبعة للوصول إلى تلك الأهداف، وما في النفوس من مشاعر نحو الآخر؛ وبما أن ما في النفوس من مشاعر وعواطف، من حب وميل أو كراهية وابتعاد، تدخل في تحديد الأهداف – على أساس النظرة إلى الآخر هل هو ممن يستحق الضم إلى تلك الأهداف أما لا، وفي الشك في نواياه – كما تدخل في الوسائل – على أساس أن العملية إما أن تكون جادة أو لا، أيضاً ما تخربه مشاعر سوء ظن السوء بالآخر في كل ما يطرح في إطار بحث الوسائل، فإن من أهم الأسس لتقييم لحساب عملية التقريب بين المسلمين وتقويمها هو معالجة المشكلة النفسية.

ترسيخ الانعزال والانغلاق

وأشرت إلى أن بعض المسؤولين عن تأسيس هذه المشكلة هم علماء السوء، ما بين الماضين الذين أسسوا تلك المشاعر نتيجة اصطفاف بعضهم

مع الحاكم الظالم وجهل بعضهم الآخر بحقيقة الآخرين وخضوع بعض ثالث للضغوط وسقوط غيرهم أمام مشاعر الانعزال، وهؤلاء الحاضرون الذين لا يتركون فرصة لترسيخ تلك المشاعر المدمرة إلا واستخدموها. هؤلاء يستخدمون مختلف الوسائل التي تؤثر على الجمهور، ومنها الأسلوب القصصي – حتى ولو كان في معظمه يتضمن قصصاً خيالية وروايات موضوعة – من جانب وترك الأسلوب الحكيم من جانب آخر. فقد ورد عن الإمام علي الرضا (ع) (عيون أخبار الرضا ص30) القول: ((رحم الله عبداً أحيا أمرنا))، فقيل له: "وكيف يحيي أمركم؟" قال (ع): ((يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا)).

فالرواية تقول:

أولاً: الإمام (ع) يدعو بالرحمة لمن يحيي أمرهم (ع)، ولا أظن أن هناك أحداً يزهد بهذه الدعوة المستجابة؛

ثانياً: يفسر (ع) طريقة إحياء الأمر بتعلم علوم أهل البيت (ع) ثم تعليمها الناس، أي دراستها ثم تدريسها؛

ثالثاً: يقول (ع) أن نتيجة ذلك هو أن الناس الذين نقلت إليهم تلك العلوم سيتبعون منهج أهل البيت (ع)، وهذا إخبار عن حالة لابد من حصولها، أو هو توقع بحصولها؛

وهنا ملاحظة:

إن الكثير من خطباء المنابر من مدرسة أهل البيت (ع) لا يأتون بهذا التفسير لكلمة ((أحيوا أمرنا)) التي وردت في أحاديث عديدة عن عدد من الأئمة (ع)، بل يأتون بتفسير أن إحياء أمرهم هو "أن يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم" وبين التفسيرين كما بين السماء والأرض! فإن التفسير الثاني يحصر المسألة في إطار المشاعر فحسب، في حين أن التفسير الرضائي الأول يجعلها تنطلق في آفاق العقل والفكر والعقيدة؛ وبما أن التفسير الثاني يدور في إطار المشاعر فلا مهرب من ترسيخ مشاعر الكره لمن يسير في خط الذين أسسوا لأحزان أهل البيت (ع)، في حين أن الأول هو طريق ملؤه الحب، وإلا لماذا تتعب نفسك في تعلم علومهم (ع) ثم تتعب نفسك في تعليمها الناس لو لم تكن تحب هؤلاء الناس؟

إن هؤلاء، وغيرهم من الذين يجدون أنفسهم في تماس مع الجمهور، عليهم مسؤولية كبرى لدفع الشبهات التي تصل نتائجها إلى التكفير، لا أن يفرحوا بـحالة الحماس في المجلس والاكتفاء بارتفاع الأصوات صادحة بالصلوات على محمد وآل محمد – وهي التي لا يشك أحد في استحبابها المؤكد – فإن منبر أبي عبد الله الحسين (ع) لم يؤسس لهذا فقط، بل كان ولا بد أن يكون هادفاً لإيصال دعوته (ع) التي لخصها بقوله: ((إنما خرجت لطلب

الإصلاح في أمة جدي؛ أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير فيكم بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب)).

هؤلاء عليهم تبليغ الإسلام الذي يمثله منهج أهل البيت (ع) ودفع ما يتهم به أتباع مدرستهم (ع) بأنهم يكفرون المسلمين، أو أن أتباع المدرسة السنية يكفرون الشيعة. قال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: "بأن بعض من يظن أن الشيعة تقول أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم، كلا ومعاذ الله؛ أو أن السنة تقول أن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام، لا وكلا. إذاً، فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجامعة الإسلامية وأحكامها من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب إخوته وحفظ حرمته وعدم جواز غيره إلى غيرها" وهذا نموذج لرأي مراجع الشيعة في الأمر.

العصبية والتكفير

لم تدع الزهراء (ع) مجالاً للمساومات، بل كانت صلبة واضحة في التصريح بما جرى من ترك أوامر الله ورسوله (ص) بعد وفاته (ص)، وعليه فإن ما يرد عنها من توصيف للشيعة والموالين والمخالفين من عموم المسلمين لا يمكن حمله على المداراة أو التقية. من هذه رواية لافتة عنها (ع):

فقد قال رجل لامرأته: "إذهبي إلى فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فسليها عني: أنا من شيعتكم أو لست من شيعتكم؟"

فسألتها، فقالت عليها السلام: ((قولي له: إن كنت تعمل بما أمرناك وتنتهي عما زجرناك عنه فأنت من شيعتنا، وإلا فلا!)) فرجعت فأخبرته، فقال: "يا ويلي! ومن ينفك من الذنوب والخطايا؟ فأنا إذاً خالد في النار، فان من ليس من شيعتهم فهو خالد في النار!" فرجعت المرأة فقالت لفاطمة عليها السلام ما قال لها زوجها، فقالت فاطمة عليها السلام: ((قولي له: ليس هكذا [فإن] شيعتنا من خيار أهل الجنة، وكل محبينا وموالي أوليائنا، ومعادي أعدائنا، والمسلم بقلبه ولسانه لنا ليسوا من شيعتنا إذا خالفوا أوامرنا ونواهينا في سائر الموبقات، وهم مع ذلك في الجنة، ولكن بعد ما يطهرون من ذنوبهم بالبلايا والرزايا، أو في عرصات القيامة بأنواع شدائدها، أو في الطبق الأعلى من جهنم بعذابها إلى أن نستنقذهم – بحبنا – منها، وننقلهم إلى حضرتنا)) (التفسير المنسوب للامام العسكري (ع): ص308 بيان معنى الشيعة ح1).

هذه الرواية تقول:

- أن الزهراء (ع) تفرق بين "الشيعي" من جهة و "المحب" و "موالي الأولياء" و "معادي الأعداء" من جهة أخرى، وعليه ينبغي لأي شيعي النظر في صحة إطلاق مثل هذا الوصف الكبير عليه
- أنها (ع) تجمع بين من يصف نفسه بالتشيع ولكن لا يأتمر بالأوامر ولا ينتهي عن النواهي مع المخالفين المحبين لهم (ع) ممن لا يعادون

أولياءهم (أي من يسمون أنفسهم شيعة) كما يعادون أعداءهم، وبالتالي فأنت بين أمرين: إن كفرت المخالفين المحبين فأنت معهم، وإن حكمت على نفسك بالنجاة فهم ناجون أيضاً

- أنها (ع) تؤكد الحكم بتفصيل واضح لما يتعرض له غير الشيعة الحقيقيين – من أتباع مدرسة أهل البيت (ع) وغيرهم – من الصعوبات الدنيوية والأخروية، حتى العذاب في أخف مكان من جهنم والعياذ بالله، إلى أن يشفعوا (ع) للجميع فينقلون إلى حضرتهم (ع) في الجنة.

ويؤكد الإمام الصادق (ع) هذا المعنى في قوله: ((الشيعة ثلاث: محبّ وادّ فهو منا، ومتزين بنا ونحن زين لمن تزين بنا، ومستأكل بنا الناس، ومن استأكل بنا افتقر)) (روضة الواعظين ص293)، فهو (ع) يجعل كل محب لهم (ع) من الشيعة.

أما الذين يعادون أتباع أهل البيت (ع) فيدخلون في إطار النصب، كما يحذر الإمام الصادق (ع): ((ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت لأنك لا تجد أحداً يقول أنا أبغض محمداً و آل محمد، و لكن الناصب من نصب لكم و هو يعلم أنكم تتوالوننا و تتبرؤون من أعدائنا)) (البحار ج72 ص131 وج27 ص233).

أقول: ولكن يجب ملاحظة مدى معرفتهم بالحقيقة، لأن الغالبية العظمى تعرضوا ولا يزالون لحملات التجهيل في الكتب والمنابر والبرامج. أي أن المعادي لأتباع أهل البيت (ع) يعتقد بأنه يعادي قوماً ضالين منحرفين يقدمون علياً (ع) على النبي (ص) ويعتقدون بتحريف القرآن ويحللون الحرام ويحرمون الحلال ويقومون بأنواع الموبقات. لذا فإن الواجب يقتضي الاستيضاح ممن يتخذ مثل هذا الموقف لأنه على الأغلب لا يعرف حقيقة الشيعة؛ وأما من لا يتخذ هذا الموقف فهذا أقرب وأقرب.

ولكن كم من الأحاديث مكذوبة؟

بغض النظر عما قلته توضيحاً وتعليقاً للأحاديث أعلاه، فإن ما ينبغي على الباحثين، خصوصاً المتصدين لمسألة التقريب، الحذر من تصديق أي رواية دون تدقيق في محتواها وفي رواتها، أي المتن والسند، فإن أتباع أي مذهب يحسنون الظن بالمحدثين ثم بالذين ينقلون لهم ما رواه المحدثون، فإذا جاءت الدورة إلى الخصم انقلب الحال إلى ضده فصاروا يسيئون الظن بمحدثيهم ونقلتهم – في غياب شبه تام للعقل والتقوى، لأن مناط قبول الرواية أو رفضها إنما هو الجانب العلمي الذي ينظر في المتن وكم هو متوافق مع كتاب الله تعالى ثم مع الحديث الشريف المجمع على صحته، ولكن انعدام التقوى أو ضعفها يفضي إلى تجاوزالمنهج العلمي – على علم وقصد –

فيصدق الشخص، حتى من يسمى عالماً، برواية أصحابه وإن كانت مما يضحك منه المجانين، ويكذب رواية الآخرين حتى وإن كانت قوية السند وموافقة تماماً للكتاب العزيز ومقاصده.

إن هناك ألوف الأحاديث التي رواها المحدثون ضعفوها هم أنفسهم، ولكنهم نقلوها احتراماً للتراث النبوي أولاً، واحتراماً للمنهج العلمي الذي يترك المجال لمن سيأتي للتدقيق ثانياً إذ ربما يجد توجيهات صحيحة لها. فإن العلامة محمد باقر المجلسي ضعّف آلاف الأحاديث التي رواها الشيخ الكليني في كتاب الكافي الذي يعد من أهم الكتب عند الشيعة.

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية رحمه الله أنه ترك القلم وقام بعملية استقرائية سريعة لأول 30 حديثاً من الكافي فوجد منها 13 ضعيفة و 8 مرسلة و2 راويهما مجهول، والـ 7 الباقية صحيحة بشهادة المجلسي الذي يعتبره "أضبط الأصول وأجمعها وأحسن المؤلفات وأعظمها عند الإمامية".

نفس الشيء بالنسبة للمدرسة السنية، فإنهم وإن قطعوا بصحة جميع ما في مرويات صحيح البخاري وصحيح مسلم، وربما غيرهما، فإنهم صرحوا بأن آلاف الأحاديث في مسند أحمد وغيره خاضعة للنقاش العلمي. ولا شك في أن القطع بصحة ما في كتابي البخاري ومسلم يوقع في مشاكل لا حل لها لوجود أحاديث واضحة البطلان لتعارضها مع صريح القرآن الكريم، أو

لتناقضها مع أحاديث أخرى في ذات الكتب، أو لمصادمتها للعقل – والنظر في هذا كله من واجب المتصدين إلى العملية التقريبية، من هذا الطرف أو ذاك.

الطرفان وحديث المخالفين

نقطة أخرى ربما يثيرها الطائفيون المعادون للتقريب، وهي أن كل مدرسة ترفض أحاديث المدرسة الأخرى ورواتها، ما يعني وقوع الطرف الداعية والطرف المدعو جميعهما في التوقف عن قبول رواية المخالفين. ولكن الحقيقة ليست هكذا، فإن قول علماء الطائفتين على الضد من هذا تماماً.

فقد قال العلامة الحلي وهو من أشهر علماء الإمامية في القرون الوسطى: "الأظهر قبول أخبار غير الموثقين منهم – أي غير الإثني عشرية – فإن التثبت يحصل بتفحص حال الرجل في خبره، فإذا حصل التثبت في حاله وظهر أنه لا يكذب في خبره فهذا تثبت"، إذاً هو الصدق وليس الاعتقاد.

وقال الشيخ الأنصاري وهو من أعاظم علماء الشيعة في القرون المتأخرة: "الأخبار متواترة في الأخذ بخبر الثقة والمأمون".

وقول العالمين لا بد منه لأن إمامهم العسكري (ع) يقول عن رواية المخالفين: ((خذوا ما رووا وذروا ما رأوا)) – أي قبول الرواية لأنها نقل ورفض الاعتقادات المخالفة.

وهذا هو قسم من الأحاديث الذي يسمى "المُوَثَّق" الذي في سلسلة رواته رجال من غير الشيعة ولكنهم ثقاة في الحديث.

حذار حذار من العصبية

وردت نصوص عديدة تحذر تحذيراً شديداً من العصبية لأنها تخرج من الدين. منها قول النبي (ص): ((من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه)).

وعنه (ص) قال: ((من كان في قلبه حبة خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)) (وسائل الشيعة: ج11، ص296).

ويعرّف الإمام علي بن الحسين (ع) العصبية بالقول: ((العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم)) (الكافي ج2 ص 308 رواية 7).

إن كلمة "قوم" تشمل جامعة النسب أو الوطن أو القومية أو الدين أو المذهب، وعليه فإن الشيعي الذي يرى أن أي شيعي وإن كان فاسداً على المستوى الأخلاقي غير ملتزم بتعاليم الدين ومعاييره (بغض النظر عن أن صفة التشيع الحقيقي ستسقط عنه حسب تعريف الزهراء (ع) وأولادها (ع) مما مر بعض منه) فإنه أفضل من أي سنّي حتى وإن كان على درجة عالية من

الفضيلة الأخلاقية والالتزام بالضوابط الشرعية .. إنما هو رجل متعصب آثم – ومثله السني الذي يقف ذات الموقف من الجانب الآخر.

وعليه، ينبغي الحذر الشديد من تقديم أي شيء على حقيقة الإيمان بالمولى عز وجل، ومنه العصبية، التي تعني اتباع الهوى فيمن يتعصب له الإنسان بحيث يتعامل معه ومع ما يحيط به بشكل يخالف ما أمر الله به، فيكون قد أشرك بالله طاعته لهواه في تعصبه لهذه الجهة أو ذلك الانتماء. وإلا، لِمَ حكمت هذه الأحاديث على المتعصب بالخروج من الإيمان؟

لماذا كل هذه الكراهية؟!

إن المرء ليعجب ليس فقط لحجم هذه الكراهية التي في القلوب، ولكن أيضاً للسبب وراء هذه الكراهية. فإذا كانت الجامعة الإسلامية أعلى من غيرها، بحيث تجعل أي خلاف إنما يدور في إطار الجهل أو عدم الفهم الدقيق أو الوقوع في فخ الاشتباه أو في فخ التضليل والافتراءات، لأنها ترسم الدائرة الكبرى بكلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" التي لا شك في أنها واحدة عند الطرفين، فكيف لأي هوية أخرى داخل هذه الجامعة القدرة على نسف كل شيء بحيث تجعل من الأتباع أفراداً يحملون قلوباً سوداء بعضهم على البعض الآخر، يشكون في أقوالهم، ويصدقون أي تهمة ويقبلون أي افتراء حتى ولو كان من المستحيل قبوله من أي عاقل؟

ما الذي يجنيه الناس من كل هذا الكره والحقد والبغض؟

إذا كان أصحاب الشأن الذين تأسس الاختلاف في زمانهم تعاملوا بشكل أفضل، حتى الذين نحن – كشيعة أهل البيت (ع) – نتهمهم بأنهم ظلموا أهل البيت (ع)، بل أسسوا الظلم عليهم، وجدناهم يأخذون ما أرادوا ويتركون الباقي، فلا ينكرون فضل أهل البيت (ع) بعد أن أخذوا المنصب منهم، فكيف يأتي الأتباع ليحاولوا ما وسعهم ذلك إنكار فضلهم (ع) الذي لم ينكره أئمتهم الأولون أنفسهم؟!

وإذا كان أهل البيت (ع) أنفسهم قد تعاملوا مع ذلك الظلم والإبعاد بموقف معاكس إذ قابلوه بالعدل والتعايش من أجل التقليل من الانحراف ومنع الأخطار على الأمة فكيف يسوغ لأتباعهم أن يتعاملوا مع الآخرين بنقيض منهجهم (ع) أو أن ينعزلوا وينغلقوا دون مراعاة للمصالح العليا للأمة؟

التواصل منطلقاً مني إليك: الأسس

- **مهما كنت أنت**

إنني لا أجد مشكلة في الحوار معك سواء كنت عالماً أم متعلماً أم جاهلاً، فأنت بالنسبة إلي إنسان. فإنك لو كنت غير مسلم فإن إمامي علي ابن

أبي طالب (ع) الذي علمني أن ((الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق))، فلا يهمني ما ينطوي عليه قلبك من مشاعر سلبية تجاهي وحتى تجاه المقدسين عندي، بقدر ما يهمني أن أقوم بواجبي تجاهك في تعريفك بالحق الذي أعتقد به، لأزيل ما علق في ذهنك من أفكار ربما جاءتك من أناس غير مأمونين عليك ولا على مصلحة الأمة، وربما جاءتك من خلال جهدك الشخصي ولكنه كان مقصوراً على ما قيل عني لا ما قلته أنا عن نفسي، وهذا يحتمل الكثير من الكذب والجهل والتهم الباطلة والتشويش والتعتيم.

وإلا فأي حوار نريد إذا كنا نضع شروط القبول بالرأي الآخر والخضوع إليه؟ كلا، الحوار يعني: أن أقبلك وأن لا أتعالى عليك أولاً، وأن أحبك ثانياً تلك المحبة التي تدفعني لأن أبين لك ما أعتقد أنه الحق، ومحبة في الله وجنته لاعتقادي بأنه سيجزيني على قدر نيتي وجهدي المخلص في توضيح الحقائق إليك، فإن وصلت معي إلى آخر ما يمكن من الشوط بأن تابعتني على ما أنا عليه فإنه الأجر العظيم – وإني شخصياً أتعامل في هذا الأمر بمقتضى تشجيعهم (ع) ((أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا)).

- **لا نتائج مسبقة**

إن من أسس العمل التقريبي، وهو ما يشمل أي عمل حواري حول أمر خلافي هو عدم الدخول في الحوار بأحكام مسبقة بحيث أن الداخل قد

عقد النية على رفض أي رأي غير رأيه وأي نتيجة تصادم ما هو عليه. ذلك أن القرآن الكريم علم النبي (ص) أن يدخل إلى الساحة الحوارية في جو منصف للآخر المقابل من حيث وضع الطرفين في مستوى واحد من الإحتمالات، قال تعالى: ((وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)) سبأ:24. أي أن النبي (ص) – وهو من هو في الدرجة الأعلى من اليقين بما عنده – يجلس مع الآخر المقابل دون إعلان أنه (ص) على الحق والآخر على الباطل، بل في إطار إمكانية هذا وذاك. بهذا الشكل فإن الآخر يشعر أولاً باحترام الطرف المقابل له، وثانياً بأن هناك إمكانية للغلبة العلمية لموقفه، ما يفتح الطريق أمام انفتاح الطرف المقابل على قناعاته تلك.

فإذا كان النبي (ص) يجلس مع الآخرين، وهم أدنى منه في كل شيء، ليبدأ معهم من نقطة الصفر فيما يخص النتائج، فكيف بنا نحن – أنت وأنا – في بحثنا مثل هذه الأمور؟

إذا كان النبي (ص) ينهج هذا النهج القرآني في تحييد الشخص والتركيز على الفكرة، فلماذا نسير نحن وراء مشاعرنا التي هي نحو الشخص دون شك، لأن الفكرة من عالم العقل، أما السقوط أمام المشاعر فاحتمال الفشل فيه أكبر لأن انفعالات النفس أصعب من أن يتم ضبطها من عمليات العقل؟

- **الطرفان داخل الإسلام**

على الرغم من قناعتي التامة بأن ما عندي هو الحق الذي ثبت لدي من الدليل القاطع من قرآن وسنة وتاريخ وعقل، فإني سأجلس معك، وأنا مقتنع أيضاً، بأن ما عندك لم يأت من دنيا خارج دنيا الإسلام، إلا أنه مشوب بضعف كونه تأسس من قبل أشخاص لم يتمتعوا بالعصمة من الخطأ كما لم يتمتعوا بما تمتع به أهل البيت (ع) من عناية النبي (ص) في التعليم والتربية.

سأضع نصب عيني أنك من أهل "لا إله إلا الله" فلا يجوز سوء الظن.

- **لنكن رقيقين مع بعضنا!**

لا يكفي الاعتقاد بإسلامية الطرفين، ولا المعالجة العقلية السليمة في آليات المناقشات، ولكن لتكن المعالجة ملؤها تفهّم موقف الآخر الذي ربما لا يتمتع بقدرة كبيرة على ضبط انفعالاته، بل ربما هو ينوء تحت ثقل دنيا كاملة من التجهيل والتضليل بموقف الآخرين ونواياهم.

إذا سمعت أن علماء من المذهب الذي أنا عليه يطعنون بالمقدسين عندك، فأنت إذا حاولت أن تحصرني في زاوية إعلان قناعتي في تلك المسألة فالذي تفعله إنما هو قطع الطريق على إمكانية أن نأخذ بأيدي بعضنا إلى الحق. ما الفائدة من معرفة رأيي بفلان – مهما كان مقدساً – إذا كان البحث هو لتحقيق هدف الأمة الواحدة التي ما ربطها القرآن بفلان أو غيره؟

ولو قلت لك رأيي بفلان، هل أنت على استعداد للتعامل تعاملاً عقلياً مع رأيي كي توضح لي الخطأ الذي أنا عليه مما تعتقده أنت؟

القرآن الكريم يعطي وصفاً عاماً لطريقة الحوار، وهي ((بالتي هي أحسن))، في قوله: ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا باللتي هي أحسن)) العنكبوت:46. مهما كانت ((التي هي أحسن)) ينبغي لنا – أنت وأنا – أن نعتمدها... مع ملاحظة كلمة ((أحسن)) فهي الأحسن دائماً من بين الخيارات التي بين أيدينا.

- **نقاط الخلاف بعد نقاط اللقاء**

لنبدأ بالتأكيد على نقاط اللقاء المشتركة فيما بيننا لتأسيس أرضية مشتركة للتقريب بحيث يمكن التعامل مع نقاط الخلاف ونحن في أمان من الانزلاق نحو العداوة. إذا كانت كلمة "لا إله إلا الله" مشتركة فهل يعقل أن تكون أي نقطة أخرى مانعة؟

وإذا كانت كلمة "محمد رسول الله" مشتركة فهل يعقل أن يكون الخلاف حول الأشخاص – مهما كانوا – مانعة؟

وإذا كانت محبة أهل البيت (ع) واحترامهم مسألة مشتركة فهل يعقل أن يكون الخلاف على درجة اتباعهم قضية مانعة؟

وإذا كانت الغاية، وهي رضوان الله والجنة، مشتركة فهل يعقل أن يكون الخلاف على التفاصيل مانعاً؟ بل هل يعقل أن يكون الخلاف على الدنيا مانعاً.

إن هذه الأمور المشتركة الكبرى تقطع الطريق أمام كل من يريد ترسيخ ثقافة العداوة والتباعد والبغض والانغلاق، وتفتح الطريق واسعاً أمام المحبة والتقارب والتعايش.

قال تعالى: ((قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) آل عمران:64، أي أن العنوان الإسلامي ((فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) إنما ينبع من عبادة الله وعدم الشرك به، وهو الذي عليه جميع المذاهب الإسلامية دون استثناء.

- **حسن الظن**

كيف تجلس معي وأنت تعتقد أني أضمر لك شراً، أو أني غير صادق في ما أدعيه؟

كيف ستتعامل معي بإيجابية وقد علموك أني جزء من مخطط عالمي كبير يشترك فيه جميع المنتمين إلى المذهب صغارهم وكبارهم، علماؤهم وعوامهم؟!

وكيف سنستثمر الوقت الثمين القصير الذي لنا في هذه الدنيا وأحدنا يغطي ضغائن القلب بابتسامات كاذبة (بل إن البعض يفشل حتى في ذلك، فتنعكس ضغائن القلب إلى غضون الوجه)؟

ما هي المصلحة في إبقاء سوء الظن هو الفاعل؟

نعم، "سوء الظن من حسن الفطن"، أو كما ورد عن أحد الأئمة (ع): ((إذا فسد الزمان وأهله فمن أحسن ظنه فقد غرر)) أي اغتر بالظاهر، ولكن هذا على مستوى التوقي من الفعل الخارجي، أما الحوار والتعامل بالحسنى وطرح الإشكالات من أجل الوصول إلى تفاهم فما الذي يضيره حسن الظن؟

- **فإذا ما استمعت إلي**

إذا نجحتُ وإياك في أن نفعّل ما اقترحته أعلاه، عندها أمامنا وضع الأسس العملية في بحث الموضوع، وهي:

أولاً – طريقة التعامل بين الطرفين، تكون بالأسلوب الرقيق المحب، دائماً ((بالتي هي أحسن))، وهذا مفتوح على مصراعيه في الأخذ به حسب مزاج الشخص ودرجة انضباطه وضبط انفعالاته... المهم هو التعامل بالحسنى، بل بأحسن ما للحسنى من معنى؛

ثانياً – طريقة البحث في الأدلة، تكون بانتهاج المنهج العلمي البحت الذي يفصل كل طرف عن المشاعر الإيجابية أو السلبية تجاه شخصيات التاريخ التي ترد في البحث، (هناك منهج عام في مجتمعاتنا بإظهار سلبيات الشخص أو الفكرة بمساحة أكبر من الإيجابيات)؛

ثالثاً – الحاكم في النزاع هو الحق سبحانه وتعالى، من خلال كتابه العزيز ونبيه الكريم (ص) ((فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)) النساء:59، ثم العقل القطعي الذي يحكم باستحالة هذا أو وجوب ذاك أو وقوع التناقض وأشباهها وهو الذي حث عليه الكتاب ((إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب)) الزمر:21، والسنة ((ما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل))؛ بعكسه ندخل في الشرك الخفي ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً)) النساء:65؛

رابعاً – ترك الجدال بالباطل، بمعنى إعلان الطرف الذي اقتنع بوجهة النظر الأخرى ذلك دون عناد أو مداورة أو تكرار، فإن الحق تعالى يقول ((إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟)) الزخرف:23-24، فلماذا التعصب لرأي من الممكن عقلاً أنه خطأ... ولكن

خامساً – ترك الحرية للطرفين في اتباع ما تم إثباته، فإن حصول القناعة بشيء لا يعني اتباعه لأن هناك جوانب أخرى تضغط على الإنسان فتمنعه من ذلك.

عوداً على بدء: الهدف أكبر من غيره

إذا كان الناس مستعدين لتجاوز ما في دواخل نفوسهم أو الأفكار التي نشؤوا عليها بخصوص الآخرين من أجل مصلحة دنيوية آنية كتجارة أو عمل دراسي أو جيرة محدودة، أو من أجل الالتزام بقواعد مهنية كقسم (أبو قراط) الطبي الذي يقسم عليه الأطباء في أن يعاملوا جميع المرضى نفس المعاملة، فكيف لا يمكن تجاوز المشاعر والأفكار من أجل الهدف الأكبر وهو مصالح الأمة، التي تشمل مصالح الأفراد والأوطان وتضمنها؟

إذا وضعتَ هذا في ذهنك فإن طريقة تعاملك مع ما أقول وأطرح ستنهج النهج القرآني النبوي في احترام الآخر ووضعه على قدم المساواة في خصومة الرأي والتعامل معه بالتي هي أحسن. هذا النهج هو الذي يزيد احترامك حتى لنفسك وما تحمله من أفكار لأنك ستحيط نفسك بجو موضوعي هادئ يتخذ من الثقة بالنفس وبالآخر ومن النهج القرآني النبوي طريقاً للاستماع والإسماع.

الفصل السابع

البعد الفردي – تناول المسألة من الآخر

قلت أن من أهم الأسس لتقييم عملية التقريب بين المسلمين وتقويمها هو معالجة المشكلة النفسية. وأشرت إلى أن بعض المسؤولين عن تأسيس هذه المشكلة هم من العلماء الماضين والمعاصرين الذين ثقفوا الأمة على التساهل في رمي الآخر بكل تهمة حتى التكفير، وما يترتب عليه من أحكام، تجد بعض أتباعهم جاهزين لترتيبها وتنفيذها.

التكفير وضرورة الوحدة

وأذكر بقول الشيخ كاشف الغطاء أن: "بعض من يظن أن الشيعة تقول أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم، كلا ومعاذ الله؛ أو أن السنة تقول أن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام، لا وكلا. إذاً، فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجامعة الإسلامية وأحكامها من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب إخوته وحفظ حرمته وعدم جواز غيره إلى غيرها"، وهو قول يجعل المسألة الخلافية الأصلية، وهي إمامة أهل البيت (ع)، خارجة عن النيل من

الصفة الإسلامية لأي مسلم وما يستتبعه من حرمة دمه وماله وعرضه أولاً ووجوب التعامل معه تعامل المؤمنين كإخوة يحفظ بعضهم بعضاً.

وأزيد هنا قوله (رحمه الله) بخصوص نيل الشيعة من الخلفاء الأولين والذي يشكل أهم ما يستخدم ضد عملية التقارب: "إن هذا لا يقتضي العداء حتى لو تم، أولاً لأنه ليس من رأي جميع الشيعة بل من رأي بعض الأفراد؛ وأن أئمتهم (ع) نهوا عن ذلك. الثاني، أنه لو حصل فلا يستوجب الكفر أو الخروج من الإسلام، بل أن أقصى ما يمكن قوله في ذلك هو أنه معصية، والمعاصي وأهلها كثيرون في الإسلام، فلا يجوز قطع الرابطة الإسلامية بسببه. الثالث، أن هذا لا يوجب معصية أو فسقاً إذا كان ناتجاً عن اجتهاد لأن المتسالم أن المجتهد إذا أخطأ فله أجر، وأن علماء السنة حكموا على المتقاتلين في الصدر الأول كالزبير وطلحة ومعاوية أنهم اجتهدوا وأخطأوا في اجتهادهم وأن ذلك لا يقدح في عدالتهم وعظيم مكانتهم".

وتساءل: " إذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه – أي مع الاجتهاد – تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة".

ثم يلفت إلى أننا إذا نظرنا إلى ما جره الخلاف والعداء على المسلمين وما ضاع من ممالكهم وصولاً إلى رزية فلسطين وكيف أن سبع دول عربية

إسلامية تغلبت عليها أذل الأمم وأقلها عدداً عندها يصبح أمر الجامعة والرابطة الإسلامية لا بد من تقديمه على غيره.

(يعني دخول مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن والسعودية واليمن الحرب ضد اليهود عام 1948، والتي كانت في الواقع حرباً في صالح اليهود،لأنهم كانوا أفضل تدريباً وأفضل عدة، وحتى أكثر عدداً، فإنهم كانوا أكثر من مائة ألف بقليل بينما كانت قوات الدول السبع أكثر من أربعين ألفاً بقليل!. وهكذا، فإن الأمة وصلت إلى الضعف والذلة بحيث أن دولها المستقلة لم تستطع إرسال ولا حتى نصف عدد "العصابات الصهيونية" كما كان يطلق عليها.)

ثم يشير الشيخ إلى أن العصبيات تنتج من تهجم البعض على الآخرين ورد الآخرين عليهم (أي التهجم على الشيعة فيضطرون إلى الرد).

التكفير والعصبية

إنني عندما أنقل إليك – أخي المخالف – قول الإمام جعفر الصادق (ع): ((الشيعة ثلاث: محبّ وادّ فهو منّا، ومتزيّن بنا ونحن زين لمن تزيّن بنا، ومستأكل بنا الناس، ومن استأكل بنا افتقر)) (روضة الواعظين ص293) فإنما أريد منك أن تعرف أمرين حاسمين:

الأول – أن الكثيرين ممن يتسمون شيعة هم في الواقع محبون لأهل البيت (ع) متبعون لمدرستهم الفقهية، ولكنهم غير متبعين للمنهج الصحيح الذي يؤهلهم لصفة التشيع، وعليه فمن الظلم تحميل التشيع كمذهب والشيعة كطائفة وزر أي فعل أو قول يخرج من فرد أو أفراد مهما علت أصواتهم أو نشرت أخبارهم؛

الثاني – أنك وأتباع المذهب السني الذي تتبعه أو المذاهب السنية الأخرى إذا كنت محباً واداً لأهل البيت (ع) – وهو الأعم الأغلب في أهل السنة – فإنك في عداد التسمية الشيعية العامة التي بينها الإمام الصادق (ع)، ولكنك غير متبع لمدرستهم الفقهية وذلك إما لجهلك بأن مذهبهم هو مذهب فقهي وليس عقدي فحسب، أي أنه لا يقوم على الإمامة فحسب، أو أنك تعلم أنه مذهب فقهي أيضاً ولكن التبس عليك الأمر عندما سمى الناس – وليس الأئمة (ع) ولا شيعتهم – هذا المذهب بأنه مذهب "جعفري" مع أنه مذهب "علوي"، وربما كان ذلك مقصوداً لصرف الناس عنه لأنهم لو سمعوا أن هناك مذهباً "علوياً" عندها لن يسعهم أن يتركوه إلى غيره لأن مؤسسه – علي بن أبي طالب – صحابي (بغض النظر عن صفاته الفريدة ومميزاته التي نطق بها الكتاب العزيز والنبي الكريم (ص)) بينما مؤسسو المذاهب الأخرى هم من عصر ما بعد الصحابة ومعظم التابعين.

بلحاظ الأمرين أعلاه، نستطيع إقامة جامعة أخرى ترسخ الجامعة الإسلامية، وهي جامعة مودة أهل البيت (ع)، تلك الجامعة التي لا بد أن يشعر بها كل مسلم يقيم الصلاة، وإلا ما معنى قوله "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد" في تشهد الصلاة، في كل صلاة، فريضة أو نافلة، يومية وغير يومية، كل يوم، مدة عمره طالما هو يقيمها؟

الحب والنصب

إنني عندما أنقل إليك تحذير الإمام الصادق (ع) لمن يبغضون الشيعة في إطلاق وصف "الناصب" عليهم بقوله (ع): ((ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت لأنك لا تجد أحداً يقول أنا أبغض محمداً و آل محمد، و لكن الناصب من نصب لكم و هو يعلم أنكم تتولونا و تتبرؤون من أعدائنا)) (البحار ج72 ص131 وج27 ص233) فإني أريد تحذيرك – محبة لك وخشية عليك – من أن تندرج في هذه الجماعة التي نصبت العداء لأتباع أهل البيت (ع) مع علمها أن عنوانهم هو مودتهم (ع) واتباع مذهبهم الفقهي. ولن ينفع هؤلاء الاتكاء على اتهام الشيعة بمعاداة الصحابة، وذلك:

أولاً، أنهم لا يعادون جميع الصحابة أو سبهم والبراءة منهم، وإلا ما معنى تبجيلهم صحابة مشهورين كعمار وسلمان وحذيفة وأبي ذر وأبي أيوب وحجر بن عدي الكندي والمقداد وغيرهم، وهم يكثرون من ذكرهم

ويزورون قبورهم ويكتبون فيهم الكتب والرسائل الجامعية ويحبونهم حباً جماً؛ إنما يعادون من ثبت وقوفهم مواقف سلبية لم يمكن تغطيتها من فاطمة (ع) – وهي بضعة النبي (ص) – عندما سلبوها ملكيتها وإرثها وهاجموا بيتها وهددوها ومن فيه بالتحريق، ثم ردوها عن حقوقها رغم المطالبة العلنية بها وإقامة الحجج التي لا ترد عليها، ومن علي (ع) – وهو أقرب الخلق إلى النبي (ص) حتى آخاه دون غيره ونقل إليه العلم والحكمة ونصبه علماً للناس – فسلبت حقوقه في خلافة النبي (ص) وبالتالي سلبت حقوق المسلمين لأن خلافته (ع) تعتبر من أهم حقوق المسلمين، ومن الحسنين (ع) – وهما سيدا شباب أهل الجنة والمعلن عن تطهيرهما في القرآن وإمامتهما على لسان النبي (ص) – فهددا من ضمن تهديد بيت أمهما (ع) ومنعا من نفس الحقوق في الملكية والإرث ثم منعا مما منع منه أبوهما (ع) حتى ذاق الأول منهما السم والثاني السيف على ما عرفه المسلمون جميعاً؛

ثانياً، هو أن سب أولئك الصحابة موضوع الخلاف لا يقوم به إلا القلة، لا كعقيدة، لأن أئمتهم (ع) أوصوهم بأفضل الأخلاق ونصحوهم بعدم السب، بل كزفرات نفس تتحسر على ما جرى على سادتهم وأئمتهم (ع)، ثم ما جرى عليهم هم من الحكام الذين تأسست ممالكهم كنتيجة مباشرة لذلك الذي جرى في أول الأمر، وإلا فهل سمعت – أخي المخالف

– عالماً أو متعلماً أو حتى أحداً من العوام الذي يتصف بالتقوى وحسن الخلق يتخذ من السب وسيلة لإظهار توجعه على ما جرى على سادته الطاهرين (ع)، بل على الأمة الإسلامية جمعاء نتيجة لذلك؟

ثالثاً، أن هناك فرقاً هائلاً بين الصحابة وأهل البيت (ع)، أريد منك التنبه إليه – أخي السني الذي تحمل في قلبك الحب الذي لا شك فيه لآل محمد (ص) –، وهو: إن الصحابة لا وجود ديني لهم، بل إن وجودهم تاريخي إذ كانوا هم الذين شد الله بهم أزر نبيه (ص) فكانوا بين مهاجر عن الأهل والوطن أو أنصاري فتح قلبه قبل بيته للنبي (ص) وصحبه المهاجرين، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فأشاد الله تعالى بهم في محكم كتابه بما لا يجعلهم محتاجين لمدح الشيعة ولا السنة ولا غيرهم؛ في حين أن آل محمد (ص) جزء من هذا الدين، فإن لم يكن في الأصول – أي الإمامة – فلا شك في أنه جزء في أهم الفروع، وهي الصلاة، يأتي ذكرهم واجباً كجزء من الصلاة على النبي (ص) المنزلة في قوله: ((إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)) الأحزاب:56، فأراد الحق سبحانه أن ينبهك وينبهني وجميع الذين آمنوا إلى هذا الاندكاك بين النبي (ص) وأهل بيته (ع) عندما بين (ص) أن الصلاة المأمورة في الآية ليست مقتصرة عليه (ص) ولكن أن تضم آل محمد (ص) إليه (ص) – فلو لم يكونوا جزءاً منه (ص) بمعنى

أنهم خلفاؤه فما معنى هذا؟ وحتى لو تنازلنا عن هذا المعنى الواضح، فإن ضمهم (ع) إليه (ص) في الصلاة، كمعنى لهذه الآية الكريمة أولاً، وكجزء لا يتجزأ من تشهد الصلاة المفروضة والنافلة ثانياً، يجعلهم المبرزين على غيرهم، وإلا يكون غيرهم أعلى منهم منزلة ثم يأتي الدين فيتركهم ويختار غيرهم – وهم آل محمد (ص) – ليضعهم في أهم العبادات على الإطلاق، وهي عبادة – وأرجوك أن تتنبه إلى هذه النقطة – شاملة لجميع المسلمين المكلفين، نساءاً ورجالاً، عامة وخاصة، يعرفون العربية أو لا يعرفونها، مرضى أو أصحاء، في سفر أو حضر، لأنها العبادة الوحيدة التي لا تترك بأي حال من الأحوال.

لذلك – أخي العزيز – لا يجوز التجافي عن شيعة أهل البيت (ع) فقط لسبب أنهم يحبون أهل البيت (ع) لأنك أنت أيضاً تحبهم...

ولا يجوز معاداتهم لأنهم يجافون بعض الصحابة لأن الصحابة – مهما علوا – ليسوا جزءاً من الدين...

هذا ينبغي أن يجعلك تنفتح على أهل البيت (ع) وشيعتهم:

لتتحقق مما نسب إليهم من اتهامات هل هو صحيح أم لا؟

ولتعرف أيضاً ما إذا كان ما يقومون به من عبادات فيها بعض الاختلاف عما تقوم به أنت، أو ما يعتقدونه من عقائد ربما لا تعرفها، هل له أصل في الشريعة أم لا؟

أريد منك أن لا تكون ممن يلتزم بمودة أهل البيت (ع) لكن عنده عداء غير مبرر لشيعتهم، فتكون مصداقاً لما حذر منه آل محمد (ع) – الذين تحبهم – كما في حديث الرضا (ع): ((إن ممن يتخذ مودتنا أهل البيت لمن هو أشد لعنة على شيعتنا من الدجال!)) فسئل: "يا ابن رسول الله بما ذا؟" قال: ((بموالاة أعدائنا و معاداة أوليائنا؛ إنه إذا كان كذلك اختلط الحق بالباطل و اشتبه الأمر فلم يعرف مؤمن من منافق)) (صفات الشيعة حديث 14).

الإمام (ع) يقول أن الموقف الذي يحمل كل التناقض في داخل موالاة أعداء أهل البيت (ع) ومعاداة أولياء أهل البيت (ع) يشوش على الحقيقة، فهو يخلط الحق والباطل وعندها يصبح المرء حاملاً لعلامات المؤمنين مع علامات المنافقين.

فإذا قلت – أخي العزيز – أن الشيعة يظنون أن بعض الصحابة الكبار هم أعداء أهل البيت (ع) ولكنهم ليسوا كذلك وإنني إنما أحب الطرفين لأنهم كانوا جميعاً متآلفين متحابين، فإن هذا يمكن أن أعزوه لك إلى عدم المعرفة بحقائق التاريخ أو إلى عدم التحليل السليم للأحداث، ولا بد لي أن أتجاوزه لأسألك:

هب أنني قبلت منك هذه النظرة، على أساس أنك لا تعرف حقيقة ما جرى من تجاوزات عليهم (ع) بعد وفاة النبي (ص) (على الرغم من

اعتراف علماء أهل السنة بها، وإن فسروها أو نصحوا بالتغاضي عنها)، فهل يمكنك إعطاء تفسير لموقفك الموالي لمن وقفوا مواقف عدائية لأهل البيت (ع)، وصلت إلى حد الحروب التي لا يمكن نفي وجودها؟

هذا الموقف منك – أخي العزيز – ليس موقف إدانة، فإني وإياك لسنا في محاكمة، ولكن كيف نتحاور في مثل هذه المسألة المفصلية التي من شأنها إما الاستمرار في تدمير مقدرات الأمة أو أن يتم الاتفاق حولها بشكل أو بآخر كي تسير سفينة الأمة في خضم الأمواج العاتية المعادية؟

إن موالاتك لمن حارب علياً (ع) لا يمكن إلا أن تكون تأييداً لمن أبغض علياً (ع)، اللهم إلا أن تكون الحرب دليلاً على الحب! ولا بد أن حديث النبي (ص) ((يا علي: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق)) قد وصلك فهو صحيح وفي غاية الاشتهار، وعندها فإن موقفك هو التناقض بعينه: المحبة الحقيقية لأهل البيت (ع) وفي نفس الوقت موالاة الحزب المبغض المعادي؟

فهل أترك قول علماء مدرستي وأتبعك؟!

كلا! لا أريدك أن تتبعني أو تتبع غيري ممن يخطئ ويصيب. بل انظر فيما نقلوا من حديث وتفسير وما ناقشوه وما ردوا به على علماء مدرسة أهل البيت (ع)، ولكن لا تدع هذه الهبة العظمى– وهي العقل – تقع فريسة هذا

أو ذاك مهما كانوا، لأن الله أدان موقف من ((إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله)) فكان ردهم ((قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)) وذلك لأنه يمكن أن يكونوا ((أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)) البقرة:170.

يقول الشيخ مغنية: "ليس العالم من وثق برأيه ومعتقد آبائه وكانت له المقدرة التامة على المحاورة والمداورة، وإنما العالم من فصل الواقع عن ذاته وعاطفته، وفكر تفكيراً حراً مطلقاً، لم يتعصب لرأي على رأي، بل يقف من كل قول موقف الشك والتساؤل، وإن كثر به القائلون وآمن به الأغلبون".

ثم إن علماء مدرستك لم يجدوا حرجاً في القرون الأولى من الاعتماد على روايات رجال الشيعة الذين كانوا من أشد الموالين لأهل البيت (ع)، وهذا دليل على أنهم كانوا أكثر وعياً وحرصاً على تفسير القرآن وحديث النبي (ص) من المتأخرين الذين وقعوا ضحية التجهيل والسقوط تحت الضغوط.

إن أهم كتب الحديث السنية، وهي الصحاح الستة، وعلى رأسها صحيح البخاري وصحيح مسلم، اعتمدت في الكثير من رواياتها على الكثير، أكرر الكثير، من رجال الشيعة الذين لا شك في تشيعهم، بل أن بعضهم كان شديداً في التشيع حتى اعتبر ذلك طعناً فيه.

ولم يكن هذا الموقف من محدثي أهل السنة جهلاً منهم بحقيقة هؤلاء الشيعة، فقد كانوا يصرحون بتشيع الراوي مع أخذهم منه، موضحين

موقفهم بالقول: "لنا صدقه وعليه بدعته"، أي أن صدقه الثابت لديهم يجعلهم يأخذون روايته بكل اطمئنان، حرصاً منهم على نقل حديث المصطفى (ص)، أما بدعته – لأنهم يعتبرون التشيع بدعة – فهو عليه لا يؤثر لا على روايته ولا على موقفهم منه.

هذا الموقف أجابتهم عليه بشكل إيجابي مدرسة أهل البيت (ع) على لسان أحد أئمتهم الطاهرين، فقد روي عن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري (ع) أمره التالي: ((خذوا ما رووا وذروا ما رأوا)، أي خذوا برواية السني الصادق واتركوا ما يراه من آراء في الاعتقادات أو تحليل الروايات.

وهذا الموقف هو بالضبط الذي أريده منك – أخي العزيز –: أن تأخذ بما وصلنا، لأنه هو الموجود بين أيدينا فلن نخترع شيئاً جديداً، ولكن لنجلس وننظر فيه كما نظروا، ونحلله كما حللوا، ونطابق بينه وبين غيره كما طابقوا، ولنستنتج كما استنتجوا، في اتباع دقيق لخطوات المنهج العلمي الموضوعي.

أسس النجاح، تذكير

أذكرك هنا بأسس النجاح التي ذكرتها في الفصل الرابع، مختصراً منها ما له علاقة مباشرة بحوارنا:

1: اتخاذ الإسلام قاعدة انطلاق للبحث؛

2: أن يكون منهج القرآن في البحث والحوار والنظر هو المنهج المتبع؛

3: أن تكون مصلحة الإسلام والمسلمين العليا مقدمة على غيرها؛

4: الحرية، فإنها تكاد تكون غائبة في ذهنيتنا، وهذا من أسباب خوف البعض من حوار المذاهب بحيث يصمونها بأنها محاولات تبشيرية؛

5: أن نتناول ما بأيدينا من مواضيع البحث على أساس العلم، فإنه بدونه لا يمكن الوثوق بأي نتيجة لأنها ستكون مؤسسة على مقدمات مشوشة، اختلطت المشاعر والأحكام المسبقة فيها بالمعالجة الموضوعية.

التواصل منطلقاً منك إلي: الأسس

وأذكر بما ذكرته في الفصل السادس عن خط التواصل مني إليك لأن ما أرجوه منك – كما من نفسي – هو أن نتعامل بالمثل من الحسنى، واضعين نصب أعيينا قول نبينا (ص): ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))، معدلاً بعض العبارات لتتناسب مع خط التواصل منك إلي:

- **مهما كنت أنا**

أن لا تجد مشكلة في الحوار معي سواء كنت تراني عالماً أو متعلماً أم جاهلاً، أي أن تنظر إلي كإنسان، هذا إذا لم تنظر إلي كعبد من عبيد الله ينطبق عليه قوله (ص): ((وكونوا عباد الله إخواناً))... وإن كان الذي أطمح إليه

وأرجوه هو أن تنظر إلي كمؤمن ينطبق عليه قوله تعالى: ((إنما المؤمنون إخوة))، وإلا علامَ نتحدث عن الأمة الواحدة؟ إني أرجو أن تقوم بواجبك نحوي في مناقشة ما عندي وتوضيح ما عندك من الحق الذي تؤمن به، لنزيل ما علق في أذهاننا من افتراءات أو تصورات غير حقيقية أو جهل بالحقائق، ربما جاءتنا من أناس غير مأمونين علينا ولا على مصلحة الأمة، أو جاءت من خلال الجهد الشخصي الذي كان مقصوراً على ما قيل عنك لا ما قلته أنت عن نفسك.

- **لا أحكام مسبقة**

القرآن الكريم علم النبي (ص) أن يدخل إلى ساحة حوار تضع الطرفين في مستوى واحد من الإحتمالات: ((وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)) سبأ:24. فإذا كان النبي (ص) يجلس مع الآخرين وهم أدنى منه في كل شيء، ليبدأ معهم من نقطة الصفر، فكيف بنا نحن – أنت وأنا –؟

إذا كان النبي (ص) ينهج هذا النهج في تحييد الشخص والتركيز على الفكرة، فلماذا نسير نحن وراء مشاعرنا معرضين عن نهج نبينا (ص)؟

- **الطرفان داخل الإسلام**

ستجلس معي وأنت مقتنع – أو تضع احتمالاً ما – بأن ما عندي لم يأت من دنيا خارج دنيا الإسلام، إلا أنه مشوب بضعف لأسباب متعددة؛

وحتى لو كنت تعتقد أن ما عندي جاء من أقوام أرادوا الكيد للإسلام، كما لقن به شطر كبير من أبناء أمتنا، فإن من حقي الإسلامي، أو الإنساني، عليك أن تعطيني الفرصة لنفي ذلك أو تأكيده، وإلا ستبقى أسير ما قالوه عني لا ما قلته أنا عن نفسي.

- **لنكن رقيقين مع بعضنا!**

لتكن معالجة الأمور بحثاً ملؤه تفهّم موقف الآخر الذي ربما لا يتمتع بقدرة كبيرة على ضبط انفعالاته.

ثم، إذا كنت لا تحب أن تسمع رأي الآخرين في قناعاتك، عاملهم بالمثل بأن تتجاوز عن آرائك في قناعاتهم. ما الفائدة من معرفة رأيي بفلان أو فلان من شخصيات التاريخ إذا كان البحث هو لتحقيق هدف الأمة الواحدة التي ما ربطها القرآن بفلان أو غيره؟

ولو قلت لك رأيي بفلان، هل أنت على استعداد للتعامل تعاملاً عقلياً مع رأيي كي توضح لي الخطأ الذي أنا عليه مما تعتقده أنت؟

لنضع نصب أعيننا توجيه القرآن الكريم في منهج الحوار: ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا باللتي هي أحسن)) العنكبوت:46. مهما كانت ((اللتي هي أحسن)) ينبغي لنا – أنت وأنا – أن نعتمدها... مع ملاحظة كلمة ((أحسن)) فهي الأحسن دائماً من بين الخيارات التي بين أيدينا.

- **نقاط الخلاف بعد نقاط اللقاء**

لنبدأ بالتأكيد على نقاط اللقاء المشتركة فيما بيننا:

إذا كانت كلمة "لا إله إلا الله" و "محمد رسول الله" ومحبة أهل البيت (ع) واحترامهم والأمل في رضوان الله والجنة مشتركة فهل يعقل أن تكون أي نقطة أخرى مانعة؟

إن هذه الأمور المشتركة الكبرى تقطع الطريق أمام ثقافة العداوة والتباعد والبغض والانغلاق، وتفتح الطريق واسعاً أمام المحبة والتقارب والتعايش وانفتاح كل منا على ما عند الآخر.

- **حسن الظن**

لنكن، أنت وأنا، مستعدين للتخلي عن سوء الظن. لنجلس معاً ونحن لا نعتقد بأن أحدنا يضمر شراً للآخر، أو أنه غير صادق فيما يدعيه من رغبته في التواصل والتقارب والفهم والتعاون؟

حاول أن تتعامل معي بإيجابية، لا على أساس ما ربما سمعته بأني جزء من مخطط عالمي كبير؟!

أكيد أن تغيير سوء الظن إلى حسن الظن ليس يسيراً، إلا أن السؤال يبقى: ما هي المصلحة في إبقاء سوء الظن هو الفاعل؟

- **فإذا ما استمعت إليك**

عندها أمامنا وضع الأسس العملية في بحث الموضوع، وهي:

أولاً – طريقة التعامل بين الطرفين، ((بالتي هي أحسن))؛

ثانياً – طريقة البحث في الأدلة، بانتهاج المنهج العلمي البحت الذي يفصل كل طرف عن المشاعر الإيجابية أو السلبية تجاه شخصيات التاريخ التي ترد في البحث أو التي يدور حولها البحث؛

ثالثاً – الحاكم في النزاع هو الله، من خلال قوله: ((فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)) النساء:59، ثم العقل القطعي ((إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب)) الزمر:21، والسنة تؤكد على دوره ((ما عُبِد الله بشيء أفضل من العقل))؛ بعكسه ندخل في الشرك الخفي ((فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً)) النساء:65؛

رابعاً – ترك الجدال بالباطل، حرصاً على الوقت والجهد، بإعلان الطرف الذي اقتنع بوجهة النظر الأخرى ذلك دون عناد أو تكرار... ولكن

خامساً – ترك الحرية في اتباع ما تم إثباته، فإن حصول القناعة بشيء لا يعني اتباعه لأن هناك ما يضغط على الإنسان ويمنعه من ذلك.

لا تكن عبد غيرك

من أقوال الإمام علي (ع) الرائدة: ((لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرّاً))، فهو ينبهنا إلى حقيقة كوننا أحراراً بالخلقة، لأن خالقنا هو الذي خلق غيرنا، ومنهم الماضين والحاضرين، فنحن وإياهم نتساوى في القدرات الذهنية والنفسية والبدنية، فعلامَ نتبعهم اتباع العبد لسيده لا يملك لنفسه رأياً ولا فكراً ولا نظراً؟

هؤلاء الماضون يتحدث القرآن الكريم عن علاقتنا بأفعالهم بقوله: ((تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون)) البقرة:134، وهذا يجعلنا أحراراً في تناول المواضيع كائناً ما كانت والوصول إلى نتائج واستنتاجات وقناعات خاصة بنا لا أن نحكم على أنفسنا حكماً مؤبداً في أسر قناعات الماضين، لأنهم مسؤولون عن جهودهم وقناعاتهم وما قاموا به على أساسها ونحن لن نسأل عن ذلك.

أي نحن – أنا وأنت – أحرار في قبول ما توصلوا إليه أو تركه، اعتماداً على الدليل الذي وصلنا منهم أو غيره، لأن نتغيى رضا الله تعالى والفوز بجنته وكل ما عداه فإنه دون ذلك.

إضافة إلى هذا، إن حريتنا في البحث تفتح أمامنا الآفاق الأخرى التي لم يهتد إليها الماضون، ولا سيما فيما يخص القرآن الكريم، وإلا ما معنى قول

علي (ع): ((لا تنقضي عجائبه ولا تفنى غرائبه)) وقول الباقر (ع) أن القرآن ((يجري مجرى الشمس والقمر والليل والنهار)) في عطاء مستمر لا ينقضي؟

إن ما ورثناه عن الماضين ليس نحن، بل هو تراث محترم لا نستطيع بدونه الاهتداء إلى ما أراده الله ورسوله (ص)، ولكن ليس في كل تفصيل ولا في كل الآفاق بحيث كأن الصحف طويت ولم يعد هناك مجال للبحث، لأننا بهذا سنخسر الكثير مما في كتاب الله وسنة النبي (ص) مما لم يزل علماء المسلمين وباحثوهم ومفكروهم يهتدون إليه كل حين.

أو هي العصبية إذاً!

بعيداً عن هذا المنهج لا بد أن أصارحك أن العصبية هي التي تتحكم في طريقة تناولك لمثل هذه الأمور الخلافية، فيناسب أن أذكرك بما ورد عن رسول الله (ص) من التحذيرات الشديدة بشأن التعصب والعصبية:

روي عنه (ص): ((من تعصب فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه))،

و ((من كان في قلبه مثقال خردل من عصبية جعله الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية)).

وحديث آخر رواه ابن ماجة في سننه (12191) أنه (ص) سئل: "أمِنَ العصبية أن يحب الرجل قومه؟" قال: ((لا، ولكن من العصبية أن

يعين الرجل قومه على الظلم)). وأي ظلم أشد من قبول الافتراءات على المسلمين وترديدها وتأسيس المواقف عليها والحكم عليهم بالخسران، في إطار من تعصب، وما يقوله الناس هنا وهناك، وسوء ظن لا يقبل قول الآخرين حتى لو أقسموا عليه بالأيمان الغليظة، فيساهم المرء في استمرار تمزق الأمة وسقوطها وبقائها أمة تابعة غير متبوعة، مقودة غير قائدة؟

ويبقى الخيار لك

صحيح أن موضوع الدين من أخطر المواضيع للإنسان المسلم، ولكن نفس الخطورة موجودة في ذات الموضوع، وهو أن يكون المرء ساقطاً أصلاً في حبائل الجهلة أو أصحاب المصالح أو الأعداء الخارجيين، فيسير معهم دون تمحيص... نعم، ربما سيشعر بالاطمئنان أن "الذي تعرفه خير من الذي لا تعرفه"، ولكن هل هو حقاً يعرف من يعرف؟ وهل أن من يعرف هو حقاً خير ممن لا يعرف؟

ويبقى الخيار لك...

الفصل الثامن

كيفية الانطلاق نحو الأبعاد الأخرى

أعود وأذكّر بأنه دون التعامل مع القضية النفسية المتسببة في الانعزال أو الانغلاق أو حتى العداء المذهبي الطائفي لمعالجتها فإن الفشل هو النتيجة الحتمية، وهو الواقع الملحوظ في حال جهود التقريب.

التكفير

وإذا كانت الحواجز النفسية من بنات الاتهامات التي لا تصل إلى حد الإخراج من الملة من الصعوبة بحيث لم يزل المسلمون يبحثون ويتناقشون لإثبات أو نفي البدعة الفلانية أو الانحراف الفلاني داخل الملة، فكيف بالحواجز النفسية التي بناها الرمي الصريح بالكفر والإخراج من الملة؟

فإذا لم يتم التعامل مع هذا التكفير الذي لم يزل ينتشر منذ أن سيطرت الفئة الوهابية على الجزيرة العربية ثم ما لبثت أموال النفط أن جرت في أيديها، فصارت تنفقها على نشر مذهبها الذي عنوانه العريض هو تكفير المسلمين على أساس أن الكثير من ممارساتهم هي ممارسات شركية تخرج من

الملة، وأعانهم على ذلك الحلف غير المعلن بينهم وبين أعداء الأمة (والذي بدأ الآن يتخذ شكله النهائي الفاضح بالتحالف مع الصهيونية في أيامنا هذه بالتحديد)، وإذا لم يتم التعامل مع هذا التكفير فإن كل جهد مبذول في التعامل مع ماهو دون ذلك يكون مصيره السقوط في دائرة الفشل لأن هذه الفئة الصغيرة عدداً القوية مالاً وتحالفاً تهاجم، بقسوة ودون هوادة، هذه الجهود على أساس ادعاء شرك الطوائف الأخرى – وخصوصاً الشيعة – فلا داعي لبذل المساعي في طريق التقريب أصلاً.

فمن أين جاء هذا التكفير؟

حديث الثلاث وسبعين فرقة

من أهم أسلحة التكفير بيد جميع المسلمين هو حديث الفرقة الناجية الذي ورد في أحاديث جميع المسلمين، والذي ينسب فيه القول إلى النبي (ص) أن أمته ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهن في النار إلا واحدة، وقد جاء في ذيل بعض الروايات أنه (ص) أوضح أن الفرقة الناجية هي ((ما عليه أنا وأصحابي))؛ فادعت كل فرقة أنها هي الفرقة الناجية وأن الآخرين في النار – هكذا دون تحفظ.

وقد نوقش الحديث من نواح متعددة، منها:

أن العدد لم يتم إحصاؤه وعليه فهذا طعن في المعلومة الأساسية فيه؛

أن الفرق الهالكة حسب وصف الحديث هي التي تخرج من أساسيات الاعتقاد وليست الطوائف الملتزمة بها؛

أن الهلاك في الحديث هو تعبير عن فساد أعمالها فقط، ولكن يرد عليه قوله (ص) أنها في النار؛ حتى هذا، فإنها يمكن أن تنالها الرحمة بالشفاعة وغيرها، لا سيما وأن الأحاديث مستفيضة في أن الأمة الإسلامية أمة مرحومة وأنها أكثر أهل الجنة؛

أن الهلاك متعلق برؤساء الفرق لأنهم هم الذين يضلون الناس، أو أنهم ضلوا عن علم، في حين أن الأتباع لم يتحقق عندهم ولم يتاكد لديهم او يتضح لهم ضلال فرقهم.

أقول: عندي ملاحظتان بشأن الحديث:

الأولى، هل استطاع أحد إحصاء هذه الفرق اليهودية و النصرانية؟

الثانية، هو ما ذيلت به بعض الروايات من أن الفرقة الناجية هي "ما عليه أنا وأصحابي"، والتي أراها مستحيلة على النبي (ص)، لأن المعيار هو النبي (ص) نفسه وليس الأصحاب، فإن الله تعالى لم يقمهم أسوة حسنة معه (ص) بل كان (ص) وحده الأسوة الحسنة ((لقد كان لكم في رسول

الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)) الأحزاب:21.

ولئن كان بعضهم أسوة حسنة لمن بعدهم فإن ذلك لا علاقة بعبارة ((ما عليه أنا وأصحابي – الباطلة أصلاً–)) الذي يضعهم معه (ص) سواء بسواء.

هذا، ناهيك عن اعتقادي بأن الصحابة كانوا ثلاثة أقسام: مؤمنون ومنافقون ومن في قلوبهم مرض، وهذا بنص القرآن – ومن يُرِد أن يَرُدّ على القرآن فهذا شأنه.

هذا الحديث وأمثاله أسس للنهج التكفيري في الأمة، فرويت الروايات في كل مدرسة ضد أتباع المدارس الأخرى.

من ذلك، ما ورد عند الشيعة فيما يخص الاعتقاد بولاية علي (ع) وأولاده الأئمة من أهل البيت (ع) وربطها بالإيمان عموماً، مع أن الروايات الصحيحة أكدت أن المشكلة إنما هي في العناد عن اتباع الحق بعد وضوح الرؤية والتيقن من إمامة علي (ع) وأولاده (ع).

ومن ذلك ما ورد من تكفير أهل السنة للشيعة، كما في رواية عن الإمام الصادق (ع) أنه قال لأبي بصير: ((يا أبا محمد لقد ذكركم الله إذ حكى عن عدوكم في النار بقوله: "وقالوا مالنا لانرى رجالاً كنا نعدهم من

الأشرار؟ أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار؟" والله ماعنى الله ولا أراد بهذا غيركم، صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس وأنتم والله في الجنة تحبرون، وفي النار تطلبون)) (تفسير فرات الكوفي سورة ص عن روضة الكافي حديث 32). ولما كان عنوان "أعداء الشيعة" يطلقه البعض على جميع غير الشيعة فإن الرواية تحكم على الجميع بالخسران.

ومن ذلك، ما ورد عند أهل السنة من تكفير الشيعة من جانب، واتهامهم بتكفير أهل السنة من جانب آخر.

كما يوردون تكفير بعض علماء أهل السنة للشيعة، وإن كان بإخراج فيه شيء من الفن، حيث وجدوا صعوبة في تكفير "الشيعة" لأنهم وجدوا المدح الشديد للشيعة في بعض الروايات (كما في تفسير سورة البينة قوله تعالى ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية)) فقال النبي (ص) لعلي (ع): ((هم أنت وشيعتك))، فعمدوا إلى استخدام لفظة أخرى هي "الرافضة"، بمعنى أنهم رفضوا خلافة الخلفاء الثلاثة قبل علي (ع) (مع أن الذين ينبزون الشيعة بهذا الوصف يجعلون جذورها رفض قبول زيد بن علي بن الحسين (ع) لموقف الشيعة من خلافة الثلاثة وأنهم اعتزلوه وسُمُّوا الرافضة)... فصارت كلمة الرافضة تملأ الفضاء على شبكة الانترنت بعدما ملأت الصحف قبل ذلك.

وإن كان الحزب الوهابي أكثر جرأة، فهو يعادي الشيعة كشيعة، وليكن من أمر الروايات النبوية ما يكون!

الأحاديث الموضوعة

وأذكر بأن علماء الحديث يقرون بوجود الآلوف من الأحاديث المكذوبة، وعليه يجب عدم قبول أية رواية تكفر أي مسلم إذا وجد أقل ما يمكن التمسك به للحكم بإسلامه، أي طالما أنه لم يتلفظ بكلمة الكفر أو يعلن خروجه من الملة أو يعلن رفضه لما تصافق المسلمون على ضرورته من قبيل وجوب الصلاة وصيام شهر رمضان والعقد الشرعي للزواج وحرمة الغيبة. وحتى من فعل ذلك فلا يزال في حياته متسع من الوقت للتراجع، وهذا وراء حكم "الاستتابة" من أجل إفساح الطريق لإعادة النظر.

ما ينتظره المتصدون

وأذكر بأن الأمر في غاية الصعوبة، ليس فقط بسبب الحواجز النفسية عند المتصدين أنفسهم، وقلة الدراية بالإدارة والتخطيط، وقلة الإمكانات المادية، ولكن أيضاً الحواجز النفسية وغلبة المصالح عند غيرهم. وقد ذكرت ما قاله الشيخ شلتوت رحمه الله شيخ الأزهر في الستينيات وكيف أنه كان – أيام بداية دعوة التقريب في أربعينيات القرن العشرين – "مليئاً بالطعون

والتهم والافتراءات وسوء الظن من قبل المتعصبين والمتزمتين الذين قالوا أنها محاولة لإدماج المذاهب بعضها إلى بعض"، وكيف "حارب الفكرة ضيقو الأفق وأصحاب الأغراض السيئة والنفوس المريضة والنزعات الخاصة".

هؤلاء-يحاربون التقريب لأنه يفتح الباب أمام تحديات فكرية ليسوا بحجم مواجهتها، أو يخشون من تأثيرها على أتباعهم – سواء نتيجة حرص حقيقي صادق على نقاء العقيدة أو حرص نابع من المصالح الخاصة.

أبعاد الموضوع: الطائفتان

أعيد ما قلته في الفصل الثالث تحت عنوان "نظرة الطائفتين إلى التقريب والوحدة الإسلامية" بخصوص المواقف المختلفة لكل من الطائفتين تجاه التقريب والتقارب مع الطائفة الأخرى.

أما أهل السنة، فهناك موقفان:

الأول يعترف بإسلام الشيعة وعليه فإن مذهبهم من المذاهب الإسلامية موضوع البحث في قضية التقريب، ولكنه يخشى من تسرب عقائد الشيعة إلى المسلمين السنة. إلا أن هؤلاء لا يمتنعون عن الاستجابة إلى دعوات المؤتمرات واللقاءات فيدعون رغبتهم في التقريب والوحدة، ولكن لا يتقدمون خطوة في هذا الاتجاه.

الثاني يدعو إلى تفعيل جهود التقريب برغبة صادقة ويشارك فيها من أجل إنجاحها، لأن الشيعة عنده مسلمون كغيرهم وأن الخشية من أفكارهم لا مبرر لها لاسيما بلحاظ الهدف الأكبر من جهود التقريب.

أما الوهابية فهم ليسوا من أهل السنة حقاً إذ يخالفونهم في مسائل عقدية تمس حتى الأصل الأول وهو التوحيد، كما في مركزية الفقه عند أهل السنة قبال مركزية الحديث عند الوهابية. على أية حال، هم لا يرون في التقريب مع الشيعة أي إمكانية لأنهم يكفرون الشيعة، دون مواربة أو تردد.

أما الشيعة فهناك موقفان أيضاً:

الأول يشابه الموقف السني الأول، وهو الخشية من صهر المذهب الشيعي في المذاهب السنية، خصوصاً وأن أهل السنة هم الأكثر عدداً. لذا، فهم لا يعملون في إطار التقريب، فإن فعلوا فبالإطار اللفظي ليس إلا.

الثاني على العكس، فهو يؤمن بجهود التقريب، اتباعاً لنهج الأئمة (ع) في إشاعة روح الأخوة الإسلامية والأمة الواحدة من خلال نهجهم التوحيدي، وإدراكاً منهم لحقيقة أن أعداء الإسلام لا يفرقون بين المسلمين من شتى المذاهب. لذا، فهم أشد الناس دعوة وتحمساً وتشجيعاً للتحرك والعمل في إطار التقريب.

أبعاد الموضوع: أروقة اللقاء والعمل

قبل أن تترسخ نتائج الخلاف الأول بين المسلمين حول إمامة أهل البيت (ع) كان المسلمون يتعايشون في مكان واحد، فيدخلون نفس المساجد ويسكنون نفس المناطق. كان أقطاب الخلاف الأول، علي (ع) وشيعته من الصحابة وعمر وشيعته من الصحابة، يجلسون ويتباحثون حول مختلف القضايا، الإدارية والفقهية، وبالتأكيد فيما يخص جيوش الفتح الإسلامي.

إلا أن استمرار منع أئمة أهل البيت (ع) من القيام بواجباتهم ودفعهم عن مقامهم الشرعي الذي يتجلى في منصب الحاكم العام- الخليفة، واستمرار الانتفاضات الشيعية بقيادة العلويين، جعل العلاقة بين السلطة والشيعة علاقة كلها ملاحقة وسجون وتعذيب وتشريد وقتل، الأمر الذي كان له أثر خطير وهو انعزال الشيعة عن الآخرين، لأن الآخرين صاروا جزءاً من المذهب الرسمي الذي تفرضه الدولة وشيئاً فشيئاً قضى أهل الجيل الذي كان منهم من يعرف جذور المشكلة ونشأت الأجيال التي ترى أن السلطة القائمة هي الحاكم الشرعي الذي ينبغي القيام بنصحه إن زاغ وابتعد لا الثورة عليه، وبالتالي فإن المعارضين له إنما هم خوارج زنادقة؟

- **مساجد ومراكز إسلامية**

وهكذا، صار في الأمة مساجد للسنة لا يدخلها الشيعة ومساجد للشيعة لا يدخلها السنة، الأمر الذي استمر حتى يومنا هذا. لذا، فإن من أهم ما يجب أن تتوجه إليه جهود التقريب هي المساجد والمراكزالإسلامية بحيث تصبح عامة لجميع المسلمين، وهذا الجهد إنما هو محاولة إرجاع طبيعة المسجد إلى ما كانت وما يجب أن تكون عليه. وليس هذا الهدف أمراً مستحيل البلوغ بدليل نجاح الجاليات المسلمة المقيمة خارج العالم الإسلامي بتحقيقه من خلال التواجد في المساجد والمراكز الإسلامية دون ملاحظة مذاهب مؤسسيها.

إن الأجواء الروحانية لبيوت الله، والأجواء الملتزمة في المراكز الإسلامية، والطبيعة الهادفة لها، ينبغي أن تستثمر لبناء الجسور التي هدمت وردم الفجوات التي ترسخت قبل قرون في أحداث لا دخل للحاضرين بها.

ولقد أمر أئمة الهدى من آل محمد (ص) شيعتهم بأداء الصلاة في مساجد أهل السنة، وحثوا عليها. فقد سأل الإمام جعفر الصادق (ع) إسحق بن عمار: ((يا إسحق أتصلي معهم في المسجد؟)) قال: نعم، قال (ع): ((صل معهم، فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله!)) (تهذيب الأحكام للطوسي ج3 باب 13 رواية 129). والإمام (ع)

يتحدث عن آبائه (ع) عن النبي (ص)، فهو يخبر عن ثواب واقع لا محالة، فلماذا يرتب الله تعالى هذا الثواب العظيم لمثل هذا العمل لولا أن التواصل وبناء الجسور بين المسلمين جميعاً من أعظم الأعمال؟

وهذا الحث يشمل حتى الحالات التي يكون فيها المتولّون للمسجد من مبغضي الشيعة – وهم كثر. فعندما أخبر رجل الإمام (ع) أن "لنا إماماً مخالفاً وهو يبغض أصحابنا كلهم"، قال (ع): ((ما عليك من قوله؛ والله لئن كنت صادقاً فأنت أحق بالمسجد منه، فكن أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس وقل خيراً)) (تهذيب الأحكام ج3 باب 13 رواية 102). كما يضيف الإمام (ع) الجانب الدعوي في الموضوع بأن يكون الرجل حسن الخلق، يتحدث مع الناس بالكلام الطيب. وإلا كيف سيستطيع الرد على الافتراءات والاتهامات والتلفيقات التي يصل بعضها إلى حدود مضحكة حقاً؟

- **مؤسسات تعليمية**

بسبب الاختلاف في: (1) المذهب العقدي والفقهي (2) قراءة التاريخ الإسلامي (3) بعض المناسبات التي يحتفل بها، فإن هناك مشكلة حقيقية في المناهج التعليمية، ما يلقي بظلاله على المؤسسة التعليمية ذاتها.

فكيف سيكون شكل درس الدين وهناك تركيز كبير من الشيعة على أهل البيت (ع) وإمامتهم وإهمال تام من السنة لهم (ع) ولها؟

وكيف يمكن التعامل مع الاختلافات الفقهية في الأحكام؟

وما شكل درس التاريخ؟ أهو يتحدث عن أمجاد الدولة الأموية والعباسية والعثمانية أم عن ظلم هذه الدول وعدم شرعيتها وانتشار الفساد فيها وقمعها للمواطنين؟

كيف يمكن إحياء مناسبات محرم وعاشوراء وغيرها، بل وشهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى عندما تختلف مواعيد بدء كل منها؟

كل هذه الأمور تذوب إذا خلصت النيات للمولى عز وجل بحيث يتم النظر إلى الجميع نظرة إسلامية جامعة ترى في هذا الاختلاف اختلافاً مقبولاً طالما هناك تقبل لوجود عدة مذاهب؛

وأن عدم الايمان بالامامة دون قصد تكذيب رسول الله (ص) – وعند عدم الاطلاع والتيقن – لا يخرج الإنسان من الجامعة الإسلامية؛

وأن النظرة إلى التاريخ ينبغي أن تكون نظرة إلى ماض لن يحاسبنا الله عليه، ولكنه تعالى سيحاسبنا، وبشدة، إذا تركناه يدمر حياتنا ومستقبلنا.

إن الاشتراك في إقامة العبادات والمناسبات من شأنه بناء أجواء التفاهم، أولاً من خلال اطلاع الآخرين على ما عندي كما أقدمه أنا لا كما سمعوه عني من أعدائي، وثانياً من خلال تخفيف حدة الطرح من قبل الخطباء

والدعاة الذين سيجدون أنفسهم ملزمين بمراعاة أصول اللياقة في التعامل مع الآخرين.

أما المناهج التعليمية فيمكن كتابتها بشكل يوضح الاختلافات كوجهات نظر مختلفة يعتقد بها أصحابها، ومن لا يقبلها عليه القيام بالبحث والقبول أو الرفض، دون إدخالها في معمعة العلاقات الحاضرة بينه وبين الآخرين من المذهب الآخر.

- **مؤسسات إعلامية**

من المؤكد أن هذه من أصعب الأمور لأن المؤسسات الإعلامية تعتمد على التمويل الكبير الذي يأتي عادة من حكومات لها أهدافها غير النبيلة – غالباً –، أو من أثرياء ليسوا مستعدين للاصطدام لا مع الحكومات ولا مع أية جهة يمكن أن تؤثر سلبياً على مصالحهم. لذا، فإن الهدف المتيسر أولاً هو المطبوعات، من صحف ومجلات، ومواقع الانترنت التي لا تكلف كثيراً، ثم محاولة إطلاق قنوات تلفزيونية فضائية بساعات بث محدودة، تركز فيها على الأسس التي أتحدث عنها، من مركزية ولاية الله تعالى، والإيمان بالله ورسوله (ص) واليوم الآخر، والإيمان بالقرآن الكريم، والإيمان بالجامعة الإسلامية للأمة، بأفرادها، ومجتمعاتها، وأوطانها التي تعتبر بيضة الإسلام التي لا بد من حمايتها والدفاع عنها، وأهم من كل هذا مقدساتها التي تنشرها وتدافع عنها.

ولا شك في أن هناك الكثيرين ممن يتمتعون بالقدرة على الإنتاج الإعلامي الهادف، وفي نفس الوقت يتمتعون بالإخلاص والحرص على مصالح الأمة، وممن يؤمنون بمنهج التقريب صدقاً.

إن أي عمل إعلامي مخلص يسير بالاتجاه التقني والمنهجي الصحيح سيباركه المولى عز وجل وسيقيض له مخلصين من أصحاب رؤوس الأموال الحلال ليدعموه كما سيقيض له من يرفده بالبرامج الفكرية والفنية والترفيهية والتعليمية والاجتماعية التي فيها النفع العظيم للأمة.

- **لقاءات اجتماعية، عمل خيري**

قال الإمام جعفر الصادق (ع) لزيد الشحام: ((اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام؛ وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد (صلى الله عليه وآله)؛ أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يأمر بأداء الخيط والمخيط؛ صلوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: "هذا جعفريّ" فيسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل: "هذا أدب جعفر"، وإذا كان على غير ذلك دخل علي بلاؤه

وعاره وقيل: "هذا أدب جعفر"، فوالله لحدثني أبي (عليه السلام) أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي (عليه السلام) فيكون زينها – آداهم للأمانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول "من مثل فلان، إنه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث")) (الكافي ج 2 ص636 باب ما يجب من المعاشرة رواية 5).

وفي رواية مشابهة، فيها: ((حببونا إلى الناس ولا تبغضونا إليهم)) (صفات الشيعة للصدوق حديث 39).

هذا الحث من الأئمة (ع) فيه التشجيع:

- على الانفتاح على الآخرين والتواصل معهم
- على القيام بأداء واجبات الأخوة الإسلامية معهم
- على التعامل بأحسن ما يمكن مع كل إنسان، بر أو فاجر
- على تقديم القدوة في شؤون الدين والدنيا
- على عدم التأثير سلباً على مكانة الأئمة (ع)، بل على تحبيبهم إلى الناس الذين لا يعرفون منزلتهم ومقاماتهم ودورهم في الحياة.

إن هذه الروح بين المسلمين من الطوائف المختلفة نجدها موجودة في مختلف المجتمعات. كما أن غالبية علماء المسلمين، من شيعة وسنة، يوصون

أتباعهم بذات الوصايا التي سمعناها من أبي عبد الله الصادق (ع)، ولكنها لا تجد لها مصاديق أكبر نتيجة الانعزال والحالة الاستقطابية الموجودة رغماً على الجميع، الأمر الذي يجعل من محاربة هذا الأساس الخطأ ضرورة أولية.

- **مؤسسات فكرية**

إن هذه المهمة تقع في مركز عملية التقريب حيث أن كل مؤسسات أو مجامع التقريب إنما تقوم بعملية فكرية من أجل الوصول إلى فكر أرقى إسلامياً ليشرق على النفس كيما تتخلص من الرواسب والعقد بين أبناء الطوائف.

فقط أذكر بأن في صلب عملية التقريب تفسير القرآن والحديث الشريف، وأول ما يجب التأكيد عليه هو أن علماء الطائفتين قبلوا روايات التفسير والأحكام وحتى الفضائل (وهي محل نزاع كبير) بعضهم من البعض الآخر، أي من رواة السنة والشيعة، وهو ما أكده العلماء عبر القرون.

إلا أن الجهد الفكري في إطار العملية التقريبية يمكن القيام به في اتجاه آخر، وهو العمل الفكري المشترك من جانب التوعية الفكرية العامة لأبناء الأمة، أيضاً من جانب العمل الفكري المشترك قبال غير المسلمين، عندما تتعرض الأمة الإسلامية لحالات من الاعتداء على مقدساتها أو مصالحها أو حقوقها أو أفرادها.

إن مثل هذا التعاون الفكري من شأنه الإسهام في إذابة الجليد حتى على مستوى بعض العامة لأنهم يرون من يثقون في إمكاناتهم وإخلاصهم من المثقفين والكتاب والأدباء والصحفيين والفنانين والرياضيين يتعاونون فيما بينهم على الرغم من معرفتهم بالخلافات والاختلافات.

- **عمل سياسي**

إن من أعجب ما يجده المتتبع لحركة المذاهب الإسلامية هو فشل الإسلاميين في صياغة عمل إسلامي مشترك. هذا، بغض النظر عن عدم وضوح طروحاتهم في معظمها؛ فإن شعار "الإسلام هو الحل" مثلاً شعار فضفاض يرفعه أي إنسان يؤمن بالإسلام ديناً ويلتزم بشريعته؛ أو شعارات تستخدم بعض الآيات كقوله تعالى ((قل هذه سبيلي أدعو إلى الله))، وكلها لا تحدد تفاصيل، بل لا تحدد حتى الأطر العامة.

ولكن العجب يزول إذا ما عدنا إلى نفس النقطة: النفس وما فيها من عقد ورواسب مركبة من جهل وضعف في التحليل، وضعف في التقوى.

لهذا تجد حزباً إسلامياً معروفاً يصطف، في بياناته وأدبياته وسائر مواقفه، مع المضطهدين في بلد آخر، في الوقت الذي يتناسى – إلى درجة ملفتة – أنواع الاضطهاد في بلده هو، حتى لو فاقت ما يجري في البلد الأول،

وما ذلك إلا لكونه ينتمي إلى طائفة الحاكم في بلده وطائفة المحكوم في البلد الآخر.

وحتى إذا استطاع البعض من ذوي النفوس الكبيرة التي اخلصت لله ودينه العبور على تلك الحواجز النفسية، فإنهم قلة قليلة ستجد كل أنواع الاتهامات والرفض وحتى الطرد من جماعتها قبل غيرهم.

لذا، لا بد من أن يكون هناك جهد في إطار العمل السياسي يتضمن النظر في التصرفات والممارسات والمقالات بحيث يكون كل شيء بحساب، لأن كلمة واحدة في غير محلها يمكن أن تنسف جهوداً مضنية كبيرة.

إن قول علي (ع): ((فما راعني إلا انثيال الناس على فلان – أي أبي بكر – يبايعونه، فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص)، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه)) (نهج البلاغة كتاب 62)، لما ينبغي للإسلاميين العاملين اتخاذه منهجاً يسيرون على هداه، لأنه يقول بكل وضوح أن وقف الهجمات الخارجية لا يكون إلا بالعمل الوحدوي الإسلامي.

كما أن قوله (ع) لأصحابه الذين وصله سبهم لجيش الباغي معاوية: ((إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبِّكم إياهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغيِّ والعدوان من لهج به)) (نهج البلاغة خطبة 206) يعني ضبط النفس في أصعب الظروف التي وصلت إلى إراقة الدماء الغزيرة، بل أبعد منه وهو الدعاء للعدو بالصلاح.

أخيراً، فإن العمل السياسي يمكن أن يتخذ أشكالاً أوسع كما هو الحال في الغرب، الذي يعتبر العمل من أجل قاطني المحلة الصغيرة عملاً سياسياً في إطار المجالس المحلية. كما يمكن أن يكون من أجل رفع الحيف عن المعدمين، أو لتوسيع الحريات، أو الدفاع عن حقوق المسلمين.

التقريب أوسع من النخبة

أخيراً، فإن جميع المجالات أعلاه دون استثناء ينبغي أن تشرك الجماهير لأنها هي التي تتأثر بالسلبيات وهي التي تتحمل عبء نتائجها؛ كما أنها هي التي يمكن أن تحمل ثمرات التقريب بحيث تصبح المجتمعات المسلمة عصية على المؤامرات الداخلية والخارجية.

ولا شك في أن إشراك الجماهير لا يمكن في المراحل الأولى التي تخطط وتبدأ بالشروع بالتنفيذ لأن الأرضية غير مهيأة ، بل هي قلقة محفوفة بالمخاطر – بعض هذه المخاطر من داخل العمل التقريبي، من أشخاص يدعون التقريب وهم في دواخلهم أبعد الناس عنه، ولكن من الضروري إشراك الجماهير بأسرع وقت ممكن، لأن في ذلك فوائد:

1- نشر ثقافة التقريب والوحدة دون انتظار الوصول إلى مراحل متقدمة

2- إخراج الناس من الكثير مما عُلِّموه عن الآخر، وصولاً إلى "تبديل التباعد والتباغض إلى الإخاء والتقارب" حسب تعبير الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله

3- سحب البساط من تحت أعداء التقريب الذين سيجدون أنفسهم في غربة عن الجماهير

4- تشجيع العمل ذاته بعد أن تبدو ثمراته على الصعد الاجتماعية والفكرية والتعليمية.

الفصل التاسع

معايير النجاح

إن النجاح في أي مسعى يجب أن يحيط بجوانب الفشل المحتملة أو الحاصلة كي يمكن النظر فيها ومعالجتها العلاج الصحيح؛ بعد ذلك، ينبغي التفكير في الجوانب الأخرى والوسائل الكفيلة بترسيخ النجاح وإثرائه.

تلخيصاً لما ورد في الفصول السابقة فإن الفشل يعود إلى ما يلي:

(أولاً) عدم الوضوح في تحديد الأهداف، هل هو التقريب بين أتباع المذاهب المختلفة، أم بين العلماء والمفكرين والدعاة من أجل التأثير على الجماهير، أم تقريب الرؤى العقدية والفقهية من أجل الخروج بما يشبه المذهب الجديد الجامع، أم تحقيق الوحدة الكاملة بين الطوائف؟

(ثانياً) ضعف الوسائل المتبعة، ومنشؤه عدم تحديد الأهداف بشكل دقيق، والجهل بالآليات الصحيحة والطاقات النشيطة في الأمة –لا سيما الشبابية –. هنا أيضاً تطل النفس برأسها، حيث يأتي تقديم المصالح الشخصية والعائلية والفئوية في تعيين هذا وإعطاء العمل لذاك بعيداً عن الكفاءة.

(ثالثاً) الحواجز النفسية والأمراض النفسية مما له علاقة بالأهداف والوسائل كما قلت أعلاه، ولكن الأهم هو التأثير السلبي على أصل الموضوع، وهو التقريب. فإن أهم العاملين في هذا المسعى هم العلماء، وبعض هؤلاء، إن لم نقل الكثير، بل الأكثر، لا يستطيعون الجلوس مع الآخر للحوار معه ببرود علمي وحرارة تقوائية إسلامية.

وعليه فما لم يكن نصب أعين المتصدين والمهتمين بعملية التقريب ما أشرت إليه فيما سبق فإن الجهود ستذهب سدى. من أهم ما ذكرت هو:

المفاهيم والأفكار لا الأشخاص

1- أن تكون المفاهيم والأفكار هي سيدة الموقف لا الأشخاص، فهم ليسوا أقدس من الذات المقدسة التي قبلت الحوار حولها والتعامل بكل موضوعية مع الذين يكفرون بها ويجحدون وجودها. كما أن الشخصيات التاريخية المقدسة أو المحترمة لم تكن تتعامل بالعصبية حول ذواتها، فلسنا أحرص منها عليها. أنظروا إلى كلمات علي (ع) وهو يتحدث عن ظلامته منذ وفاة النبي (ص)، هل تجدون فيها استسلاماً للعاطفة أو اقتصاراً على التشكي وتزييف المواقف الأخرى، أم أن عمدتها هو شرح ما وقع وتبيان خطئه بالدليل، ثم توضيح كيف أنه جمع بين الموقفين: الحفاظ على حقه (ع) ودوره (ع) في الإسلام بتأكيده في الأمة وبمجانبة الذين

سلبوه منه (ع) أولاً، والحفاظ على الجامعة الإسلامية والمصلحة الإسلامية بحيث أنه ترك المجانبة الأولى وصار داعماً بكل إخلاص لمن سلبوه حقه لأنهم في معرض التعامل مع تلك المصلحة العليا سواء في إخماد الفتن الداخلية أم في الاتجاه نحو الفتح في الخارج.

الانتباه إلى حالة التقوى

2- بالبحث عنها في خبايا النفس، فمن ذلك: هل أن غيرتي على هذه الشخصية التاريخية أو تلك من أجلها فحسب أم أنني أجد عدواناً على نفسي أنا بالعدوان عليها، وعليه فإن ردّي عليه هو دفاع عن نفسي؟

حالة التقوى تتعلق بالجانبين النفسي والعملي

3- يجب الالتفات إلى أن حالة التقوى لا تتعلق بحسن التعامل النفسي مع القضايا فحسب، ولكنها تتعلق أيضاً بحسن التعامل العملي، فإنه – كما يشير المرحوم الشيخ محمود شلتوت – التلازم بين تقوى الله تعالى والحصول على التعليم منه في قوله: ((واتقوا الله ويعلمكم الله)) البقرة:282، فإنها تشير إلى التجرد بالتقوى كمدخل لتلقي العلم من الله سبحانه وتعالى. والتقوى تعني – فيما تعني – ترك العصبية أو المذهبية.

الخروج من أسار الماضي بتناوله تناولاً علمياً كتاريخ

4- بمعنى أن يتم تناوله كأي تاريخ آخر مهما كانت علاقته بالعقيدة والشريعة؛ بل أن علاقته بالعقيدة والشريعة تجعل التعامل العلمي معه لازماً، من أجل التأكد من صحة أي تفصيل عقدي أو فقهي، لأن الصراعات والخلافات السياسية في الماضي أثرت على الدين كله.

الخروج من أسار الماضي بعدم الخضوع لما وصل إليه

5- بمعنى عدم الاستمرار في الخضوع لما وصل إليه حتى ولو كان مدمراً لحاضرنا، فإن المصالح الإسلامية العليا أهم من أية تفاصيل، فإذا كان هدم الكعبة المشرفة حجراً حجراً أهون عند الله من قطرة دم مسلم كما ورد في الحديث الصحيح فكيف بالدماء المسلمة التي تسيل أنهاراً ، ومعها مقدرات المسلمين، ومعها مقدرات شركائهم في الوطن من غير المسلمين.

التحرر من العصبية

6- يجب التحرر من العصبية التي وصلت إلى حد التعامل بالحسنى مع أعداء المسلمين والتعامل بأسوأ ما يكون، حتى القتل، مع المسلمين المخالفين.

التحلي بروح الحوار

7- الحوار دائماً وفي كل شيء، وذلك لأن القرآن سلك هذا المسلك، وسلك النبي (ص) هذا المسلك، وسلك أئمة الهدى (ع) ورؤساء المذاهب والعلماء هذا المسلك. وإذا كان البعض يتغنى بمنهجه بعدم الجدال مع غير المسلمين إلا بالحسنى، فيجب عليه من باب أولى أن يقوم بذلك مع المسلمين، لأن خلافه معهم لا يمكن أن يكون أشد من خلافه مع أولئك.

تقديم المشتركات على ما عداها

8- وضع المشتركات الكبرى أمام ما عداها، وهي:

(أ) وحدانية الله (ب) رسالة النبي (ص) (ت) القرآن الكريم (ث) اليوم الآخر (ج) محبة أهل البيت (ع) (فهي قرآنية نبوية يعرفها كل من يقيم الصلاة) (ح)العبادات الأساسية من صلاة وصيام وزكاة وحج

إحترام السلف الأول

9- سواءاً كان احتراماً حقيقياً أم احترام ذكرهم أم احترامهم لدى الذي يقدسهم ويحترمهم، حفاظاً على سلامة العلاقات الاجتماعية

أولاً، وروح الإخاء ثانياً، وروح التعاون ثالثاً، وردع الأخطار رابعاً، والتصدي للعدوان خامساً.

منع العصبية المذهبية

10- لأن أهل السنة يعتقدون بأن مذاهبهم أسسها أشخاص غير معصومين بحيث أن أقربها صار مؤسساها – أبو حنيفة ومالك بن أنس – من كبار العلماء بعد ما يزيد عن مائة عام بعد العهد النبوي وبعد وفاة جميع الصحابة والغالبية الساحقة من التابعين؛ ولأن الشيعة يعتقدون أن مذهبهم لم يسلم من الخطأ نتيجة لمنع أئمة أهل البيت (ع) من بسط اليد في الحكم، ما أدى إلى انتشار الكذب والخطأ والتحريف وهم (ع) لا يملكون منع ذلك.

الاجتهاد دليل الاعتراف بعدم صحة كل شيء

11- عند الشيعة، الأمر واضح تماماً، فإن التغيير في اجتهاد المرجع المجتهد يدل على أن ما كان يعتقد به ويفتي به قبل ذلك خطأ بالمقارنة مع ما صار يفتي به بعد ذلك، ومن المحتمل جداً أن يكون أحد هذين موافقاً لأحد المذاهب الأخرى. أما عند السنة، فمع أنهم لا يزالون يقولون بأن الاجتهاد لا يحصل فيما فرغ رؤساء المذاهب منه في الزمن القديم، فإن العديد من علمائهم المعاصرين صاروا يفتون بمخالفة أولئك الأقدمين.

التعامل على هدي التعاليم الإسلامية

12- أي التي تأمر بالنظرة الأخوية وحسن الظن وغيرها، ومن قبيل وصية الإمام الصادق (ع) ((أوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود وحسن الجوار فبهذا جاء محمد (صلى الله عليه وآله)، أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإن رسول الله (ص) كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم)).

التعاون الصادق

13- من أجل تحقيق التعاون والانفتاح وجميع الأهداف النبيلة.

الوقوف بحزم إزاء المعرقلين

14- الوقوف بحسم وحزم إزاء كل من يقف حجر عثرة في طريق الإصلاح والتقويم والتطور، وفضحه تماماً – أي البعد عن المجاملات وتقديم سمعة الأفراد السيئين على مصلحة الأمة؛ (بعبارة أخرى: اتخاذ طريقة أبي ذر وعمار بن ياسر (رض) في فضح المنحرفين، لا طريقة غيرهما ممن كان يتلبس بلباس التقوى والزهد وهو عنهما بعيد في الواقع).

التخطيط السليم

15- التخطيط السليم من أجل الهدف باتباع أفضل الوسائل المجربة في التنظيم والإدارة والتدقيق والمراقبة والتطوير.

الاستفادة الحقيقية من طاقات الشباب

16- ليس من أجل التنفيس عن كبتها أو إشغال أوقات فراغها أو تجنيبها الفتن والضياع، ولكن من أجل الاستفادة مما لديها مما لا يملكه الجيل المسيطر على المؤسسات العلمية والدينية والفكرية، وهو:

أ- طاقة الإبداع فهو الذي سيغير سواء رضي الجيل المسيطر أم لا

ب- الروح الوثابة الشابة التي لم تسجنها الخبرات السلبية وخيبات الأمل التي عند الجيل المسيطر على تلك المؤسسات.

الاستفادة من التقنية الحديثة

17- الاستفادة من جميع الوسائل التقنية الحديثة من أجل العمل على جميع ما ذكرته في النقاط المارة، وغيرها مما يدخل في نفس السياق.

الفصل العاشر

أمثلة من الواقع

أمثلة مما عشناه على صعيد الدول

مما مر في حياتنا أمثلة لمحاولات تهدف – في ما ادعي أو يدعي أصحابها – إلى لم الشمل وتحقيق التقارب والتعاون من أجل قوة الأمة وتقدمها ورد الأخطار والاعتداء عنها. بعض هذه الأمثلة شملت مشاريع لدولتين أو أكثر، بينما شمل بعضها الآخر مجموعة من الدول. ولا يستهدف هذا العرض تقديم تحليلات لأسباب الفشل، ولكني أريد ذكر هذه المشاريع، والإشارة الخاطفة إلى نتائجها الواضحة، وأسباب هذه النتائج.

المشروع	النتيجة	الأسباب
1 – وحدة مصر وسورية	انتهت بعد 3 سنوات، مع عقدة من تكرارها عند قائدها (جمال عبد الناصر) نفسه	الهدف: إندماج كامل الوسيلة: عدم التهيئة الطويلة بين بلدين مختلفين النفوس: إتهم القائد السوريين بإضمار الانفصال وتأليب الناس على الوحدة
2 – الوحدة اليمنية	بعد 4 سنوات حاول	الهدف: منطقي لأنه شعب واحد

بين الشمال والجنوب	الجنوب الانفصال وقامت حرب شاملة؛ اليوم هناك الحراك الجنوبي المعارض	الوسيلة: عدم التهيئة رغم اختلاف الوضع السياسي والاقتصادي النفوس: أن الشمال يريد إخضاع الجنوب وتهميشه
3- منظمة المؤتمر الإسلامي	لم تحقق شيئاً، حتى فيما يخص المسجد الأقصى الذي تأسست المنظمة بعد جريمة إحراقه!	الهدف: واجب، لكن الأهداف غير واضحة (غير التهمة أن المنظمة فكرة غربية أصلاً) الوسيلة: إستحالة جمع كل هذه الدول المختلفة في معظم الجوانب النفوس: حكام خاضعون للأجنبي، مع نزاعات شخصية – بعضها طفولية – بين "الزعماء!"
4- جامعة الدول العربية	لا شيء، إلا قرارات مرحلية سحقت بأقدام الدول نفسها، ومنها ما يتعلق بفلسطين؛ ولعل ما وصلت إليه اليوم من تحكم من يفتخر بالسياحة في إسرائيل بأكبر الدول (حتى مصر	الهدف: منطقي، ولكنه لا يحدد أي تفاصيل (ناهيك عن التهمة بأن الجامعة تأسيس استعماري في الأصل) الوسيلة: جامعة حكام متخلفين دكتاتوريين معظمهم مرتبط بالأجنبي، أن ابتداءاً أو استمرارية، مع لبس في كيفية اتخاذ القرارات النفوس: حكام خاضعون للأجنبي،

	والجزائر) يغني عن أي كلام	والصراعات الشخصية، والعقد الطائفية
5- مجلس التعاون الخليجي	لا شيء خارج إطار الاستعانة بالأجنبي لحماية دول المجلس (عدا الاستئساد على شعب البحرين الصغير الأعزل)؛ حتى توحيد العملة لم يتحقق رغم مرور 30 سنة؛ الخلافات الحدودية باقية	الهدف: منطقي، ولكن الهدف الحقيقي كان الوقوف كتلة واحدة مع الحكم في العراق يومها ضد إيران الوسيلة: عوائل حاكمة وليس شعوب، وفيما عدا الكويت والبحرين ليس هناك برلمان النفوس: حكام متخلفون تحكمهم شهوة السلطة والمال، يخشون من إعطاء الفرصة لشعوبهم التي صارت تتعلم، الصراعات بين الحكام
6- المجلس المغاربي	لا شيء مطلقاً؛ القضية الكبيرة، الصحراء الغربية، لم تتحرك لحد الآن؛ ثارت ليبيا وضربت وأسقط الحكم والمجلس المغاربي لم يذكر إسمه مرة واحدة!	الهدف: تجمع جغرافي معقول، ولكن غير محدد المعالم الوسيلة: لا تخطيط ولا تهيئة ولا اشتراك للشعوب في الموضوع، مع أن طبيعة الحكم تختلف بشكل صارخ النفوس: نفس ما قلته بحق غيره

ولعل القارئ يتساءل عن السبب في إيراد هذه الأمثلة رغم (ظنه) أنها بعيدة عن موضوع الوحدة الإسلامية أو التقريب؛ والجواب هو:

أولاً، الأمثلة ليست أجنبية أو بعيدة عن الموضوع مطلقاً، لأنها تشمل أوطاناً مسلمة في غالبيتها الساحقة، فشعوبها وحكامها مسلمون؛

ثانياً، ما قلته بشأن أسباب الفشل – أي الأهداف والوسائل والنفوس – تجدها هي هي في هذه المشاريع الفاشلة؛

ثالثاً، إذا كانت المشاريع المحدودة، التي خصت دولتين أو نصفي شعب واحد أو بضع دول، قد فشلت فكيف بالدول الإسلامية جميعاً؟ حتى الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، فهما منظمتا حكومات لا شعوب، وعليه فيفترض أن العمل بين مجموعة محدودة من الحكام والوزراء أسهل بكثير من العمل الذي يشمل عشرات الألوف من قادة المجتمع، وعشرات الملايين من الشعوب – وعليه فإن الفشل هنا هو فشل صارخ أيضاً.

ولكنهم بعيدون عن الدين؟

ولكن يقولون أن هؤلاء كلهم حكام متسلطون لا يفقهون من الدين كثيراً ولا ينتهجون منهج القرآن في التعامل مع الآخر، ولذلك فشلت جميع هذه المنظمات أو التجارب الوحدوية. فهل العلماء – ولا سيما أدعياء التقريب والوحدة – على شاكلة تختلف كثيراً؟

أمثلة معاشة على صعيد العلماء

على أساس أن العلماء هم قادة الأمة في الجانب الديني، والمفترض، بل الواجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا قدوة للآخرين بانتهاج السبيل الموضوعي العلمي في البحث من جانب، وانتهاج أسلوب الحوار الهادئ الذي يبتعد عن سوء الظن والاتهامات والانفعال، وكل ذلك في إطار التقوى.

الخلاف الرئيس

العلماء سيتناولون الخلاف الرئيس وهو حول إمامة أهل البيت (ع) بالخصوص، وهذا يتمركز بين الباحثين في قضايا التقريب حول أمور:

الأول – توثيق المصادر الروائية لهذا الفريق أو ذاك؛

الثاني – الظن أن توثيق أئمة أهل البيت (ع) دون الصحابة يبدو وكأنه موقف معاد للإسلام، أو أن توثيق الصحابة وكأنه عداء لأهل البيت (ع)؛

الثالث – تفسير وتأويل الأحداث التاريخية تفسيرات وتأويلات مختلفة تصل إلى حد أن حادثة واحدة يعدها البعض دليلاً على إهمال أوامر إلهية صريحة بينما يعدها الفريق المقابل دليلاً على مرونة الدين أو عبقرية المتأول.

هذه الأمور الثلاثة كلها تشكو من الذهنية والنفسية المثقلة بالعقد وسوء الظن والسقوط أمام المصالح.

شكوك وظنون واتهامات

أعيد ما ذكره الشيخ شلتوت من ردود فعل إزاء جهود التقريب: "كيف أن بداية الدعوة كان الجو مليئاً بالطعون والتهم والافتراءات وسوء الظن من قبل المتعصبين والمتزمتين الذين قالوا أنها محاولة لإدماج المذاهب بعضها إلى بعض، وحارب الفكرة ضيقو الأفق وأصحاب الأغراض السيئة والنفوس المريضة والنزعات الخاصة".

ومن المؤكد أن الشيخ يعني العلماء وطلبة العلم والمرتبطين بالمؤسسات الدينية لأن هؤلاء هم أصحاب التأثير السلبي على العمل بحيث يذكرهم، كما أن عامة الناس إنما ينتظرون علماءهم كي يكونوا رأياً حول الموضوع، وأنى لهؤلاء العامة معرفة وجود مثل هذه الجهود وهي لم تزل في بداياتها.

فهل ولّى زمن الشيخ؟

كلا! فإن الساحة الإسلامية، في جميع المناطق وعند جميع المذاهب، لا تزال تئن تحت وطأة التهم والافتراءات وسوء الظن، ولا تزال تشكو من التأثير الشديد للمتعصبين والمتزمتين وضيقي الأفق وأصحاب الأغراض السيئة والنفوس المريضة والنزعات الخاصة. ودونك وسائل الإعلام، المقروءة والمسموعة والمرئية، ودونك منابر المسلمين، ومعظمها يشكو من هذه المشاكل النفسية والأمراض الطائفية – وإن بدرجات مختلفة:

فبعضها يتعامل بذكاء خبيث، فهو يهدم بشكل يومي من خلال دعوته إلى التفاهم والحوار (مثلاً، يقيم برامج الحوار وعلى مدى إقامة هذه البرامج وقبلها وبعدها، أسابيع متصلة وأشهر طويلة، وشريط الشاشة في الأسفل لا ينفك عن إعادة قول لعالم قديم من الطائفة الأخرى يحكم بالخسران على شخصيات محترمة عند طائفته – كلمة قديمة تبث آلاف المرات لتغذية الحقد على الطائفة الأخرى التي يدعي الحوار معها!)

وبعضها يتعامل بغباء شديد، من خلال الأقوال المتناقضة في نفس اللحظة (مثلاً، قال أحد الناطقين بلسان جماعة إسلامية هي الآن في صميم الأحداث أن أخ الحاكم السابق في بلده كان يقوم بجهود لنشر التشيع في بلده من خلال جمعية أسسها، ثم قال "وأنا لا أريد أن أجعل الأمر سنة وشيعة، ولكن هذا ما حدث، ثم لما حصل اعتراض كبير من المسلمين، أمر الحاكم بسد الجمعية" ففي نفس الجملة حكم على الشيعة بالكفر لأن الذين اعترضوا ليسوا السنة بل المسلمين!، في إخراج واضح للشيعة من الملة)؛

وبعضها يتعامل بصراحة كاملة، تكفير الطرف الآخر، وحتى التحريض على إزهاق النفوس المحترمة، ناهيك عن هذا الولع الذي يجذب النظر حقاً في الاتهام بالزنا وخبث المولد وغيرها من تهم تتعلق بالجانب الجنسي (ربما بسبب الكبت في تلك الأوطان) (مثلاً، بما أن الشيعة يحللون

الزواج المؤقت، أو المتعة، وبما أن الزواج المؤقت عندهم حرام فإن الشيعة أولاد زنا، ليس فقط من يولد من زواج مؤقت او زواج متعة، بل الشيعة بأجمعهم! ولو سألتهم: لا يختلف العقد المؤقت عن العقد الدائم في الأساس إلا في تحديد المدة، ولكن وطء ملك اليمين – أي الأمة التي هي مملوكة لسيدها – من دون عقد مطلقاً، لقالوا: لا شيء فيه فإن الشريعة حللته؛ ولكن دليل العقد المؤقت هو القرآن أيضاً كما هو دليل وطء ملك اليمين؟ وهكذا... ولكن مع من تتحدث؟!).

المهم: هل أن الأمة لا تزال تنتج دعاة التقريب والوحدة الذين لن يتزلزلوا عن موقفهم المبدئي مهما كانت الضغوط؟

ومن المؤكد أن مثل هؤلاء موجودون، ولكن لم يعد هناك ضمانة مع أي أحد إذا ما وجدنا أكابر دعاة التقريب يتخذون مواقف طائفية صارخة مفاجئة تماماً، فيخرج بعض كبار شيوخهم عليك ليس فقط باتهام الشيعة بأنهم يقومون "بالتبشير" بمذهبهم في البلدان السنية، ولكن بأنهم "مبتدعة".

ولا بأس بذكر مواقف الشيخ كي تعرف أنها لا يمكن إلا أن تكون مما في داخل النفس التي نجحت في التستر على عللها مدة عقود من الزمن؟

– التبشير الشيعي: حذر مما سماه "التبشير الشيعي" في البلدان السنية، ونادى بعدم القيام بالتبشير في أي منطقة سنية. وهذا فيه: (1) من المعيب استخدام

مصطلحات يستخدمها المسلمون للتحذير من جهود غير المسلمين في نشر أديانهم وسط المسلمين (2) إذا توقف الناس عن التحدث بمعتقداتهم – إلى الآخر– فهذا يعني استمرارهم بالعيش داخل العقد الطائفية، في حين أن الحوار حولها من شأنه جعل كل فريق يعذر الفريق الآخر أو يتفهمه بعد أن يعلم أنه إنما بنى معتقداته على ما اقتنع به من دليل الكتاب والسنة (3) ما المشكلة في أن يتشيع بعض أهل السنة ويتسنن بعض الشيعة إذا كان الشيخ ينظر إلى الجميع أنهم مسلمون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؟

– البدعة الشيعية: قال بأن الشيعة مبتدعة، وذلك لقولهم بالنص بالإمامة على أئمة أهل البيت (ع)، وهذا مفهوم كونه من أهل السنة الذين لا يعترفون بهذه الإمامة، ولكن استخدام كلمة "مبتدعة" أو "بدعة" لا يمكن إلا وأن يضرب جداراً عالياً بين الشيعة وغيرهم من المسلمين لأنك تثير هذا العنوان وتضعه نصب عين المسلم السني، فأي مجال يتبقى للتقريب وبناء الجسور؟ ثم إذا كان الشيعة جماعة ينبغي التحذير من بدعتهم ما بال الشيخ يرأس أكبر هيئة جامعة لعلماء المسلمين وفيها عدد كبير من علماء الشيعة، أحدهم هو نائب الشيخ؟! كيف يعمل معهم طيلة عقود وهو ينظر إليهم تلك النظرة؟

– إعدام طاغية العراق: في الجمعة التي تلت إعدام الطاغية، والتي أم فيها الشيخ المصلين في البلد الذي يقيم فيه، تضمنت خطبة الجمعة ذلك الموضوع،

وما أثار انتباهي هو قوله "من كان آخر قوله لا إله إلا الله دخل الجنة" – قالها وهو يرتجف غضباً –، أي حكم على الطاغية بالجنة لمجرد أنه تشهد الشهادة قبل شنقه؛ وهذا من أعجب العجب من شيخ عالم يعتبر مرجعاً لملايين المسلمين، فإن هذا الحديث الشريف يبشر بالجنة كل موحّد نطق بالشهادة قبل موته، ولكن لا بد أن يكون غير محكوم عليه بالخسران في كتاب الله، لأن القرآن هو الحاكم على الحديث لا العكس، ولا سيما في الآيات المحكمة الواضحة – والشيخ لا بد قرأ كثيراً قوله تعالى: ((ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً)) النساء:93، وهو حكم بالنار، بل التخليد في النار، والعذاب الأليم، ولا تناله الرحمة لأن هناك لعنة تطرده من رحمة الله – فهل لم يسمع الشيخ بالكم الهائل من النفوس المؤمنة التي تعمد ذلك المجرم إزهاقها من أجل البقاء في كرسيه؟! لنضع الشيعة الذين قتلهم جانباً فهم مبتدعة لا يستحقون أن يشملهم هذا الحكم(!)، ماذا عن المسلمين المؤمنين من أهل السنة الذين قتلهم تعمداً من أجل البقاء في كرسيه ليس إلا؟ ومن هؤلاء بضعة أفراد من التنظيم المماثل للتنظيم الذي كان الشيخ ينتمي إليه في بلده؟! وماذا عن الكويتيين من أهل السنة الذين قتلوا تعمداً؟ ولكن لا، ما دام أن الطاغية قتله الشيعة فإنه أصبح مؤمناً كبيراً (شهيداً عند البعض، وربما عند الشيخ نفسه) – ولو كان الذي قتله السنة لهلل لهم، ومن لا يصدق فله المورد الأخير من عظائم هذا الرجل.

- ثورة ليبيا وثورة البحرين: لم يفرق ولا أسبوع واحد بين الثورتين، فثورة البحرين بدأت يوم 15 من شباط/ فبراير وثورة ليبيا يوم 17، أي لم يفصل بينهما سوى يومين. مع ذلك فإن الشيخ حكم – بشكل صارخ ليس فيه ذرة حياء – على ثورة البحرين بالطائفية وأنها تتحرك من الخارج – أي إيران –، في حين حكم على ثورة ليبيا بأنها ثورة حق ضد دكتاتور طاغية (يبدو أنه يختلف كثيراً عن طاغية العراق الذي ارتجف على المنبر لخبر إعدامه!). والعجيب أن ثوار ليبيا – بغض النظر عن أحقية ثورتهم ضد ذلك المجرم بعد طول المحنة – حملوا السلاح وصاروا يقاتلون، ثم طلبوا التدخل العسكري المباشر من أعداء الأمة (اللهم إلا إذا صار الناتو صديقاً للأمة ولا أدري) وكانوا يطلبون، دون حرج، ضرب الأهداف بشكل محدد، في حين أن ثوار البحرين لم يحملوا ولا مسدساً واحداً، ولم يدخلوا في قتال، ولم يطلبوا تدخل أحد – فهل هناك سبب واحد لموقف الشيخ المتناقض إلا تعصبه الطائفي الذي يئن تحته؟

- أحداث سورية وثورتها: طبعاً ساند الشيخ ثورة سورية، ليس فقط لأنها جمعت بين الاصطفاف مع الإخوان المسلمين والدور الذي تلعبه الدويلة التي يقيم فيها ويتناغم معها تماماً، ولكن بسبب الطائفة التي ينتمي إليها الرئيس السوري وتحالفه مع إيران، أي الجانب الطائفي هو الآخر. لا يحتاج سوى أن نقول أن الأمر وصل بالشيخ المسلم، الداعية، الفقيه، أنه يشكر

أمريكا على قرارها تزويد ثوار سورية بالسلاح، أيضاً يدعوها لأن تقف مع الشعب السوري "وقفة لله"! تصوروا، الإدارة الأمريكية تقف وقفة لله!

(لا أدري إن كان الوهابيون قد رضوا على الشيخ الآن بعد مواقفه الأخيرة أم لا يزال عندهم هو ال--- العاوي؟!)

ما نعيشه في هذه اللحظة بالذات

المنهج الأعلى

قبل أن أشير إلى بعض النماذج التي نعيشها اليوم، لا بأس بالتذكير بما أسميه المنهج الأعلى، وهو ما رسمه لنا أئمة الدين من آل محمد (ص)، الذين علموا الأمة بالأقوال والأفعال كيف تتعامل فيما بينها.

أما من الأقوال فلنذكر بقول الإمام الصادق (ع): ((الشيعة ثلاث: محبّ وادّ فهو منّا، ومتزيّن بنا ونحن زين لمن تزيّن بنا، ومستأكل بنا الناس، ومن استأكل بنا افتقر)) (روضة الواعظين ص293).

هذا حكم على كل من يحب آل محمد (ص) ويفعّل آية المودة ((قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)) الشورى:23 بالفوز العظيم لأنه يكون معهم (ع). ولا شك في أن هذا الجزاء الكبير لا يكون لمن كان دينه ضعيفاً بحيث لا يلتزم بالحدود الدنيا من الحلال والحرام.

وأما الأفعال، فهذه أمثلة على المنهاج التوحيدي لأهل البيت (ع):

1- مساندة علي (ع) لأبي بكر في خلافة الأخير، قوله (ع) ((فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الدين وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين و تنهنه))

2- خلافة عمر وكيف أن علياً (ع) سانده بعد أن بويع بنص من أبي بكر في اتفاق واضح بينهما تجاوزه (ع)، من ذلك أنه نصحه بعدم الخروج لقتال الفرس بنفسه بعد أن أشار غيره من الصحابة بالعكس

3- يوم الشورى بعد بيعة عثمان وقوله المعروف ((لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة))

4- صلح الحسن (ع) وتنازله لمعاوية حقناً للدماء حتى تعرض إلى الاتهامات والتجريح والتهجم من بعض أنصاره

5- حل الباقر (ع) الإشكال الاقتصادي الذي وقعت فيه دولة بني أمية بابتزاز الروم في قضية سك النقود لأنه رأى أن الأمة الإسلامية هي التي كانت تتعرض للخطر.

وأما العلاقة مع المسلمين من غير الشيعة، فأذكر بقول الصادق (ع): ((عليكم بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الصحبة لمن صحبكم وإفشاء السلام وإطعام الطعام؛ صلوا في مساجدهم وعودوا مرضاهم واتبعوا جنائزهم ...)) (صفات الشيعة للصدوق حديث 39). وهذا تشجيع – إن لم يكن أمراً – بالصلاة في المساجد التي شيدها مسلمون من أهل السنة، أي عدم الانعزال، وبعيادة مرضاهم، أي إشاعة الروح الإسلامية الحقيقية، واتباع جنائزهم، أي القيام بواجب المسلمين المخالفين إلى آخر محطة من حياتهم.

أما واقع الناس...

فليس موافقاً لما ورد أعلاه، ليس عند عامة الناس، فهم في معظمهم يغلبون الروح الإسلامية ويقومون بواجبهم إزاء المسلمين المخالفين، ولكن روحية الانعزال والانغلاق من جهة وعلماء التعصب والكراهية والبغضاء من جهة أخرى يجعل من التفعيل الحقيقي الواسع لذلك المنهج الأعلى غير موجود بما يؤثر التأثير الحاسم في مواجهة الأمة لمشاكلها الداخلية والخارجية.

وكما هو الحال عند من يحكمون بالخسران على الآخر الملتزم بأداء أنواع العبادات والقربات، فقط لأنه لا يتبع مدرسة معينة، مع أن هذا الصادق في دينه إنما يفعل ما يفعله هو ويمتنع عن فعل ما أفعله أنا لأن

الدليل دفعه إلى ذلك، وإلا، لو فعل العكس لكان الدليل شيئاً وما قرر فعله شيئاً آخر.

العجب مما نشهده اليوم

البحرين وليبيا: ذكرت موقف أحد علماء المسلمين الكبار المشاهير من الثورتين، الموقف المتناقض بحيث حكم على الأولى بالباطل والثانية بالحق، وما ذلك إلا لأن الأولى يقودها الجمهور الشيعي الذي يشكل غالبية سكان البحرين، الغالبية المظلومة التي تعاني من التمييز الواضح، مع أن المعارضة المشتركة في الثورة التي تطالب بإصلاحات واسعة تضم بعض أهل السنة من النشطاء السياسيين المعروفين، ولأن الثانية شعبها سني كله.

ولكن الأمر ليس منحصراً بالشيخ، فهو يبقى فرداً مهما كان تأثيره على أتباعه، بل وجدناه سائداً بشكل صارخ مؤسف لا يكاد يصدق. فالقنوات الفضائية التي عقدت العزم على دعم الليبيين حتى إسقاط الحكم هناك، بحيث رفع الثوار علم الدولة التي تنتمي إليها (مع علم فرنسا قائدة النجدة الأطلسية) سواء بسواء، سكتت بشكل كامل عن ثورة البحرين على الرغم من أنها كانت في نفس الوقت تماماً، وعلى الرغم من التعامل المتناقض للعرب معها، بحيث أنهم – في جامعة دولهم العربية – طلبوا رسمياً تدخل قوات الناتو لدعم الليبيين في حين أنهم قاموا بإرسال القوات السعودية

لقمع البحرانيين! واستمر القمع في السجون والمستشفيات، وصارت قنابل الغاز المسيل للدموع ترمى على البيوت،وقتل الأطفال، وهدمت المساجد، وأحرقت نسخ من القرآن...كل هذا، والقنوات العربية على ما هي عليه...

فأين الشارع العربي؟

صمت ولم يتكلم.

فإذا ما توجهت تلقاء المحطات الشيعية، كالمنار والعالم والكوثر، فإنك تجد التغطية اليومية لأحداث البحرين، وما ذلك إلا لأنهم لا يشكون المشكلة الطائفية مع شعبها، فهم شيعة مثلهم.

وأما في العراق، فإن نواباً شيعة في مجلس النواب العراقي تكلموا في نصرة شعب البحرين وأعلنوا عطلة تضامناً، وبما أن هذا الموقف لم يحصل مع شعب ليبيا فإنه كان واضحاً في اصطفافه الطائفي، الأمر الذي أشار إليه بعض الإعلام العراقي الطائفي في الجانب الآخر.

أحداث سورية: بما أن الحاكم في سورية من الطائفة العلوية، وهي فرقة محسوبة على الشيعة، تعتبر من الأقليات في سورية، فإن عداء الطائفيين من السنة للحكم هناك متوقع، فكيف إذا كانت أغلبية الشعب السوري من الطائفة السنية؟ وكيف إذا كانت وسائل إعلام معينة وجماعات سياسية معينة، خصوصاً في لبنان والأردن والخليج، مرتبطة مع جماعة الإخوان المسلمين

السورية التي تعيش حالة العداء مع الحكم السوري منذ ثلاثين سنة؟ لذا، فإن الانحياز ضد الحكم من نفس الذين اصطفوا ضد ثورة البحرين سيكون مفهوماً. ولكن غير المفهوم هو هذا التوافق الذي لم نسمع بمثله بين هؤلاء والقوى الدولية المعادية – قديماً وحديثاً – للأمة الإسلامية، والذي أدى إلى تشويه صورة الثورة السورية في مطالباتها العادلة بإصلاح الأوضاع السياسية وغيرها، تلك المطالبات التي اعترف بأحقيتها الحكم هناك.

نفس الشيء، تجد فصلاً طائفياً في مواقف الطائفتين إزاء الوضع في سورية، وهو فصل أشد ما يكون في بعض بلدان الخليج العربي التي يعتبر إسلاميوها – حسب رأيي – من أشد الإسلاميين تطرفاً في الوطن العربي.

ولا شك في أن العلاقة القوية للحكم السوري مع إيران لها دورها في تشديد مواقف هؤلاء وهؤلاء، الأمر الذي جعل من العلاقة مع تركيا، التي تمثل السند السني لأهل السنة قبال السند الإيراني الشيعي للشيعة، معياراً لاتجاه الأحداث.

تركيا وإيران:

قامت إيران بما لم تقم به لا تركيا ولا معظم البلدان العربية من دعم للقضية الفلسطينية. وفي السنوات القليلة الماضية، قامت إيران بدعم حكومة حماس في غزة بشكل حاسم ساعد على بقائها واستمراريتها رغم الحصار

الإسرائيلي العربي الفلسطيني. ووصل الأمر إلى تزويد مقاتلي حماس بصواريخ استخدمها المقاتلون في ضرب القدس وتل أبيب في المواجهة أواخر 2012، والذي أعلنتها حماس ذاتها، والذي أجبر إسرائيل على إيقاف عدوانها. ولكن: تتهم إيران بالتآمر على العرب والمسلمين والفلسطينيين بالذات، في حين لا يحتاج رجب أردوغان سوى أن يغضب من عدم إعطائه المجال للكلام في منتدى دافوس وهو جالس مع شمعون بيريز نفسه وإذا بالمظاهرات المؤيدة وصوره على مواقع الانترنت وهي تسميه البطل الخ، في نفس المواقع ونفس الصفحة تجد صورة الرئيس الإيراني وهو يشتم في كاريكاتير أو غيره!

هذا، مع أن العلاقة التركية الإسرائيلية لا تزال تتضمن الاتفاقيات الاستراتيجية التي منها عسكرية، من مناورات وغيرها، لا شك في أن بعض من اشترك فيها من الاسرائيليين قام بذبح أعداد غفيرة من أهالي غزة وفلسطين. ومع أن الدور التركي فيما يخص أحداث سورية يصطف مع الموقف الغربي المعادي ويتحرك معه يداً بيد.

ولا نريد أن نذكر كيف أن المقاومة اللبنانية التي حققت أعظم الانتصارات، دون مساومة أو اتفاقيات من تحت الطاولة، على إسرائيل، تتعرض إلى التهجم الصارخ من الجهات الطائفية، إلى درجة التشكيك في عدائها لإسرائيل!

وأما الاعتداءات الإيرانية والتركية على الأراضي العراقية فتوصف حسب انتماء الجهة السياسية أو الإعلامية. فعندما دخلت القوات الإيرانية منطقة الفكّة جنوب شرقي العراق أقامت الجهات السنية الطائفية الدنيا على الاعتداء الإيراني في حين سكتت الجهات الشيعية الطائفية. وعندما كانت المدفعية الإيرانية تقصف مناطق من كردستان العراق وفي نفس الوقت كانت القوات التركية تدخل الأراضي العراقية لتلاحق مقاتلي حزب العمال الكردي فإن تغطية الأخبار اتخذت نفس الطابع – منها ما يصل إلى درجة النكتة لشدة تحيزه، فقد جاء الخبر الأول في نشرة أخبار واحدة من أشهر القنوات الفضائية العراقية بعنوان "الاعتداءات الإيرانية على الأراضي العراقية" ثم تبعه مباشرة الخبر التالي: "ملاحقة القوات التركية للمتمردين الأكراد" في الأراضي العراقية! فحتى الغيرة على الأوطان اصطبغت بالثوب الطائفي.

مساحات مضيئة

ولكننا نعيش مساحات مضيئة في مناطق مختلفة من العالم العربي والإسلامي. فبالإضافة إلى ما وصلت إليه المقاومة اللبنانية والمقاومة الفلسطينية من قوة في قدراتها القتالية والاستخباراتية والفنية عموماً، ما جعل العدو الإسرائيلي يعتبر القضاء عليها أمراً لم يعد ممكناً بعدما كان يعمل لأجل ذلك (بالتعاون مع المتآمرين العرب ولا سيما في لبنان وفلسطين

والخليج)، هناك الشيء الجديد من الجيل الجديد الذي تحرك بشكل مفاجئ للجميع. فبغض النظر عما يقال عن التدخل الغربي أو الصهيوني فيما يسمى الربيع العربي، وهو تدخل لا بد منه لأنهم يرسمون الخطط والخطط البديلة ويتهيئون لجميع الاحتمالات، فإن الحكام العرب الذين سقطوا ما كانوا ليتقبلوا السقوط من أجل عيون هذا الرئيس الأوروبي أو الأمريكي أو ذاك. وعليه، فإن قول بعضهم – كمحمد حسنين هيكل – أن ما نشهده هو سايكس بيكو جديدة ليس صحيحاً – حسب رأيي – لأنه حتى وإن كان هناك خطط تآمرية من هذا النوع، فإنه لا يعني أن الشعوب العربية لا تعاني مشاكل خطيرة تستدعي التغيير، أو أنها مشلولة إلى درجة لم تعد تنجب أجيالاً تقوم بالتحرك وتنجح فيه. وعلى أية حال، قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع): ((وتخلع العرب أعنّتها)) الذي روي فيما يحصل في المستقبل أصدق من قول هيكل وغيره ممن يشككون بقدرة العرب على التغيير (الأولى بهم أن يتركوا الحديث من تلك القنوات المشبوهة، بل المدانة بعملها الأساسي في تطبيع العرب مع إسرائيل).

شباب مصر: فاجأ الشباب المصري مصر والعالم بتلك الثورة السلمية التي لم تتعب حتى حققت الهدف الأساس وهو رحيل حسني مبارك. ما أريد الإشارة إليه هي تلك الروح الشبابية الخلاقة في طريقة تظاهرها، وطريقة تعبيرها، وخفة دم شعاراتها التي امتزجت فيها روح الدعابة الذكية المصرية

مع طلب الحق. وعندما هوجموا بالحجارة لم يردوا إلا بنفس الحجارة، وعندما حاول الرئيس والأعوان سحب البساط من تحت أقدامهم بشكل أو بآخر لم ينخدعوا ولم يتزلزلوا، ثم عندما قرروا مغادرة الميدان بعد خلع الرئيس قاموا بتنظيفه وصبغ أرصفته، وهو ما لم يقم به ثوار قبلهم. واليوم، بعد سنتين، لا يزالون واعين للمخاطر، خصوصاً من طرف دعاة التدين السلفي الذين كانوا ضد الثورة كمسألة مبدأ لأنه خروج على الحاكم، بل كانوا يحرمون حتى مجرد التظاهر، ثم ركبوا الموجة (ربما بأمر من جهتهم العليا في شبه الجزيرة العربية، وإلا لماذا رفع العلم السعودي أحياناً)، وسيكونون عنصر تخريب للمجتمع المصري ونسيجه المتآخي بسبب تلك الروح الطائفية التي عندهم.

المهم هنا هو أن الشباب المصري أرانا أنه من الممكن بعث الروح في الأمور الثلاثة: الهدف والوسيلة والنفس – فقد كان الهدف واضحاً عندهم، وكانت الوسائل وسائل جديدة ناجحة وكلها وسائل سلمية، وكانت نفوسهم سخية في التضحيات حتى الموت كما كانت نفوساً محبة للآخر.

شباب البحرين وشباب اليمن: هؤلاء أثبتوا أنه من الممكن الثبات على استخدام الوسيلة السلمية حتى مع استمرار استفزازات رجال الأمن، ثم القمع، ثم اشتداده حتى سقوط الجرحى والقتلى. ولعل الأمر في حالة اليمن أكثر وضوحاً، فإن شعباً يلبس السلاح في كل وقت، وعنده عشرات

الملايين من قطع السلاح، وهو بعدُ شعب عشائري، يستطيع الاستمرار على ذات الطريقة السلمية التي تنادي برحيل الرئيس وتطالب بنظام ديمقراطي حقيقي، لهو شعب حي بدأ عهداً جديداً. ولا عجب أن يتحقق هذا بعد أن قال النبي (ص): ((الإيمان يماني والحكمة يمانية))، ولا عجب بعد اليوم من قول الإمام (ع) عن أنصار الإمام المهدي المنتظر (ع)، وهو يعدد الخراساني والمصري والمغربي واليماني، فيقول: ((وليس هناك أهدى من راية اليماني)).

وأما شباب البحرين،فقد ذكرنا أنهم تمكنوا من الاستمرار بصبر عجيب، ليس فقط على القمع المستمر لقوات البحرين والقوات السعودية وغيرها الخليجية (التي استأسدت على الشعب الصغير الأعزل)، ولكن أيضاً على الإهمال الواضح المؤلم جداً من قبل أشقائهم العرب من حكومات وسياسيين وإعلام، ما عدا الشيعة الذين تعاطفوا معهم معرفة منهم بمظلوميتهم، وهو ما من شأنه تغذية الشعور الطائفي عند البحرانيين، الأمر الذي نرجو أن لا يحصل، بل أن يستمروا بانتهاج ذلك المنهج الأعلى لأئمتهم وسادتهم من آل محمد (ص) الذين صبروا على الأذى وعضوا على الجراح من أجل وحدة الأمة وقوتها والحفاظ على كيانها ومقدراتها.

خاتمة

المؤمنون إخوة

أخيراً، يقول تعالى في كتابه العزيز: ((إنما المؤمنون إخوة)) الحجرات:10. هذه الجملة القصيرة تستحق وقفات ووقفات، في صياغتها اللغوية وفي معناها وفي الآفاق التي تفتحها. فهي تستخدم كلمة الحصر "إنما" التي تشير إلى شدة أهمية الأمر بعدها، فكأنها تحصر حقيقة "المؤمنون" بصفة "إخوة"، وعليه فلا معنى لوجود مناوءة ولا عداوة ولا عقد ولا حواجز ولا غيرها مما لا ينبغي أن تكون موجودة بين الإخوة.

من الممكن أن يكون المؤمن جار المؤمن، أو صديقه، أو زميله في العمل، أو قريبه، أو صهره، أو رئيسه، أو مرؤوسه، أو ما شئت من العلاقات الاجتماعية، ولكن القرآن الكريم استخدم أخوته له، وهي نفس الأخوة التي وجدنا النبي (ص) يعبر بها جميع العلاقات الأخرى بينه وبين علي (ع) – أي القرابة، فهو ابن عمه، والمصاهرة، فهو زوج ابنته، والرئاسة، فهو مرؤوسه، والقيادة، فهو جندي تحت قيادته، والتابعية، فهو تابع له، والتربية، فهو ربيبه، والسر، فهو صاحب سره، وغيرها من العلاقات المتميزة

لعلي (ع) بالنبي (ص) – ويؤاخيه (ع) بنفسه الزكية (ص) (وذلك حتى في المؤاخاة الثانية في المدينة عندما آخى بين كل مهاجر وأنصاري، ولكنه (ص) استخلص علياً (ع) لنفسه مع أن الاثنين مهاجران).

إذاً، القرآن يصف المؤمنين بصفة، ويجعلها حصرية، هي الأعلى بين الصفات – صفة الأخوة.

وعليه، فإن الذي ينظر إلى المسلم المؤمن الآخر على أنه عدو وليس أخاً إنما يدير ظهره لهذه الآية الكريمة، بعبارة أخرى، هو يرفض قول الحق تبارك وتعالى. لذا، ينبغي لكل مؤمن النظر في دخيلة نفسه عندما ينظر إلى المؤمنين الآخرين.

ولكن، تبقى نقطة، – والمتعصبون لا يتركون أمراً وشأنه! ما هوتعريف الإيمان؟

قال متعصبو أهل السنة أن من يتناول الصحابة منافق، وعللوا ذلك بقولهم أن الصحابة هم الذين حملوا إلينا الدين فمن ينتقصهم وينتقدهم يريد هدم الدين فهو منافق، إذاً فهو غير مؤمن – وبالتالي فلا تنطبق عليه الآية.

وقال متعصبو الشيعة أن من لا يؤمن بإمامة علي (ع) وأولاده الأئمة (ع) مسلم وليس مؤمناً، لأن الإيمان لا يتم إلا بولاية الأئمة (ع)، وعليه فإن السني هو مسلم وليس مؤمناً – وبالتالي فلا تنطبق عليه الآية الكريمة.

والحقيقة – فيما يراها كل من طالع آراء العلماء، عدا الآراء الشاذة – غير هذا. ومن لم يطالع آراء العلماء، أو لا يريد، أقول له الآتي:

إن الشيعي لا ينتقص جميع الصحابة، بل إنه – حاله حال السني – لا يعرف الغالبية العظمى من الصحابة، فهم بعشرات الألوف، ولكن ينتقص وينتقد ويناوئ ويعادي قلة قليلة، ليس دون سبب، وإلا يكون معادياً للدين منافقاً فعلاً، ولكن لأنهم ما بين غاصب لحق علي (ع) في تبوأ مكان الإمامة السياسية، أي الخلافة، بعد وفاة النبي (ص) مباشرة، ومعين لهم على ذلك، وساكت عليه؛ وهم – أي الشيعة – يقفون هذا الموقف بعد أن دلهم الدليل من القرآن والسنة على إمامة أهل البيت (ع)، ودلهم الدليل من قرآن وسنة وتاريخ على ما جرى في التاريخ مما يدعم رأيهم.

إن الشيعي لم يخسر علوم الدين عندما ترك أحاديث بعض الصحابة، وذلك لأنه أخذ العلوم من النبي (ص) والأئمة (ع)، أيضاً عن طريق أصحابه (ص) وأصحابهم (ع)، وإلا كيف وصلت إليه العلوم التي يسير على هديها في العقيدة والشريعة؟ بل أنه وجد القرآن والحديث يأمران بعدم الذهاب إلى طريق آخر غير طريق أئمة أهل البيت (ع) فخضع للأوامر.

إن الصحابة لا مدخلية لهم في الدين من ناحية العقيدة أو الشريعة، بمعنى أن الإنسان المسلم إذا قضى مدة عمره وهو لا يعرف اسم

صحابي واحد فإن ذلك لن يؤثر على صحة عقيدته وأدائه الفروض الدينية، ولكن أهل البيت (ع) لهم مدخلية كونهم المؤتمنين على الشريعة حسب الدليل الذي ثبت عند الشيعي. وحتى عند السني، فيمكن أن يعيش عمره كله يقيم الفروض الدينية وهو لا يعرف اسم صحابي واحد ولكنه مجبر على أن يصلي على آل محمد (ص) في كل صلاة يومية، مهما كان علمه محدوداً وأنى كانت لغته أو قومه أو مكانه أو زمانه – وإني سأعجب إذا ما فعل المرء ذلك ولم يسأل عن هؤلاء الذين يصلي عليهم كل يوم في كل فرض.

وأما في الجانب الآخر، فإن علماء الشيعة قالوا أن من كمال الإيمان الاعتقاد بإمامة الأئمة الإثني عشر من آل محمد (ص)، ولكن لا ينتفي الإيمان بعدم الاعتقاد بهم إذا لم يثبت للمسلم ذلك وإذا لم يقصد بذلك تكذيب رسول الله (ص). أي، إذا درس الأمر ولم يقتنع حقاً وصدقاً بالدليل الذي يقدمه الشيعة – من قرآن وسنة وتاريخ وسيرة وعقل – فلا يخرجه ذلك من الملة، ولكنه لن يحصل على الثمرات العليا للإيمان؛ أما إذا اقتنع ولكنه بقي معانداً لا يعترف به فلا شك في أن هذا يشرك بالله لأنه يرد الدليل القرآني والحديثي وبالتالي فإن إيمانه مشكوك فيه. مع ذلك، يبقى من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

وقد صرح علماء الشيعة (كالشهيد الثاني زين الدين العاملي، أو السيد أبي القاسم الخوئي من المعاصرين) بأن كلمة "المؤمن" في القرآن تعني المسلم الذي يؤمن بالله ورسوله (ص)، وعليه فإن الآية الكريمة تنطبق على المسلم السني (الذي لم يطلع على دليل إمامة أهل البيت (ع) أو الذي يطلع ولم يقتنع حقاً، أي لم يقتنع ولكنه رفض الانقياد إلى الدليل)، وأن تخصيص صفة المؤمن بمن آمن بولاية أهل البيت (ع) إنما كان بعد زمان النبي (ص)، أي كأنه المصداق الأصح للمؤمن لأنه يؤمن بالله ورسوله (ص) وبإمامة آل محمد (ص) أيضاً، (وإن كان البعض قال أن الإمامة بعد فرضها صارت لازمة لصفة الإسلام).

وما قلته قبل قليل من أن الفارق هو في درجة الإيمان يدل عليه أحاديث كثيرة، منها تفسر القرآن، كآية ((وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)) طه:82، والتي فسرها الإمام الصادق (ع) بأن ((ثم اهتدى)) تعني الاهتداء إلى ولاية علي وأولاده (ع)، على أساس أن التوبة والإيمان والعمل الصالح هي من لوازم المسلم عموماً، ثم تأتي الهداية إلى الولاية لتحقق هذه المغفرة المتواصلة من المولى عز وجل – والشاهد هنا هو أن الإمام (ع) يؤكد أن ((من تاب وآمن وعمل صالحاً)) هو المسلم غير الموالي، فيكون الإيمان منطبقاً عليه، وإن بدرجة أقل.

أو حديث النبي (ص): ((من مات على حب آل محمد مات شهيداً)) إلى قوله (ص): ((ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان))، والشاهد كلمة ((مستكمل الإيمان)). (مع نقطة تستحق البحث، وهي "حب آل محمد" التي ذكرتها في العديد من أحاديث أهل البيت (ع)، ذلك الحب الذي يجعل المسلم الشيعي غير الملتزم بالإطار الديني الذي يتوجب لشيعة آل محمد (ص) مشتركاً مع المسلم السني في الحال، وهي عدم الانطباق الحقيقي لصفة التشيع عليه، ولكن صفة المحبة والمودة، والتي من شأنها انقاذه في الآخرة – حاله حال السني المحب لأهل البيت (ع) الذي لا يبغض شيعتهم وهو يعلم أنهم شيعتهم.)

إضافة إلى كلمات بعض كبار العلماء، كالشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: "فمن اعتقد بالإمامة بالمعنى الذي ذكرناه فهو عندهم – أي الشيعة – مؤمن بالمعنى الأخص، وإذا اقتصر على تلك الأركان الأربعة فهو مسلم ومؤمن بالمعنى الأعم تترتب عليه جميع أحكام الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ووجوب حفظه وحرمة غيبته وغير ذلك لأنه بعدم الإعتقاد بالإمامة يخرج عن كونه مسلماً (معاذ الله)، نعم يظهر أثر التدين بالإمامة، في منازل القرب والكرامة يوم القيامة، أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء وبعضهم لبعض أكفاء، وأما في الآخرة فلا شك في أن المسلمين تتفاوت

درجاتهم ومنازلهم حسبت نياتهم وأعمالهم، وأمر ذلك وعلمه إلى الله سبحانه ولا مساغ للبحث به لأحد من الخلق " (أصل الشيعة وأصولها ص60).

فليتق المسلمون الله في أنفسهم وإخوانهم في الدين – وهم كل مسلم شهد لله بالوحدانية ولمحمد بن عبد الله (ص) بالنبوة والرسالة والخاتمة وآمن باليوم الآخر – فلا يخرجوا من يشاؤون من الإيمان فيهدموا ما بناه الله ورسوله (ص) وأئمة الدين (ع) وصلحاء المسلمين عبر التاريخ، ولا سيما في العصر الأول، ولا يساهموا في ترسيخ الضعف والتمزق في أمتهم، بل ليسهموا في محاربة هذا الضعف وإنهاء هذا التمزق، لتحقيق النهوض الذي لا بد وأنه في مخيلة كل مسلم غيور على دينه حريص على أمته يعاني لمعاناة المسلمين، بل الناس أجمعين، ممن ظلمهم اتباع الهوى والجشع والبعد عن الله ورسوله (ص) ودينه الخاتم، حتى صارت البشرية تئن اليوم من ثقل الأوزار، وتتطلع إلى المخلص الذي يقودها – بدين الله الحق – إلى الخلاص...